نَقَائِـضُ
خُفَافِ بن نَدْبَةَ والْعَبَّاسِ بنِ مِرْدَاس
تَأْصِيلٌ للبِدَاياتِ وَالتَّطَوُّر

الدكتور/ سالم عبد الرازق سليمان
الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية – كلية التربية
جامعة الإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ)

صدق الله العظيم

(سورة الفاتحة)

الملخص باللغة العربية

البحث يعرض لمحاولة للكشف عن أصول فن النقائض وبذوره الأولى، وفيه عرض الباحث للنقائض العشرة التى استطعت الوصول إليها، ملتزمًا ترتيبًا زمنيًا كما ورد فى رواية الأغانى، وقد اتسق هذا الترتيب مع الأحداث التى عبر عنها الشاعرين فى نقائضهما ثم عرضت لطرق المناقضة التى استخدمها الشاعران فى نقضهما للقصيدة الأولى.

Abstract

Find displays to try to reveal the origins of the art of opposites and the first seeds, and the View Finder ten extremes that you can access them, committed to the chronological order as stated in the novel songs, it has this arrangement Atsag with events expressed by poets in Anagaidahma then offered to ways contrary used by poets in Nqdahma first poem.

توطئـة

تُعدُّ النقائض من الفنون الشعرية ذات الطبيعة الخاصة، ومَردُّ ذلك إلى أصولٍ فنية تحكمها تكون بمثابة قيود فنية لا مفرّ من التقيد بها والإبداع فى ضوئها، وقد شاع بين الدارسين والباحثين أن النقائض ترتبط بالعصر الأموى، فلا تطلق كلمة نقائض إلا ويتبادر إلى الذهن نقائض العصر الأموى حيث الفحول فى هذا الفن جرير والفرزدق والأخطل وغيرهم، حتى إن د. شوقى ضيف يجعل النقائض فنًّا حديثًا، ظهر تلبية لحاجات اجتماعية جديدة(*) ونحن لا نختلف مع ما ذهب إليه د. شوقى ضيف من كون النقائض بصورتها الأخيرة التى شهدتها فى العصر الأموى جديدة فى تحولها إلى مناظرات أدبية، تعتمد على العقل وعلم الكلام والجدل وما اقتضته طبيعة العصر الأموى، إلا أننى أختلف مع ما ذهب إليه الدكتور شوقى ضيف من كون النقائض –كفن شعرى– فنًّا حديثًا لم يكن موجودًا قبل العصر الأموى، ولعل هذا ما تحاول هذه الدراسة أن تدلل عليه وتثبته، وهو أن فن النقائض قد وُجد فى العصر الجاهلى، وتمثل ذلك فى شاعرين مخضرمين هما خفاف ابن نَدْبة والعبّاس بن مرداس، وكلاهما ينتمى لقبيلة واحدة هى قبيلة بنى سليم، وبعد البحث عن شعر هذين الشاعرين، واستقرائه استطعت الوقوف على مادة علمية جيدة صالحة تمامًا للتدليل على صحة ما ذهبت إليه، فوجدت عشر نقائض كاملة للشاعرين، مع اعتقادى بضياع جزء كبير من شعر هذين الشاعرين، وما يقوى هذا الاعتقاد أننى عثرت فى الأغانى على نقيضتين كاملتين لم تردا فى شعر خفاف ولا فى شعر العباس، وقد قام بجمع شعر خفاف د. نورى حمودي القيسي وقام بترتيب شعر خفاف حسب وروده فى المصادر تبعًا للترتيب الزمنى للمؤلف مثل الأصمعيات ثم الأغانى ثم منتهى الطلب، ثم جاء د.محمد نبيل طريفى وقام بجمع شعر خفاف وترتيبه تبعًا لحروف الهجاء، ثم استدرك د. أحمد عمار أكثر من ثلاثين بيتًا على ما جاء عند الجامعين الأوّلَيْنِ، وقام د. يحيى الجبوري بجمع شعر العبّاس، وقد فاته ما عثرت عليه فى الأغانى من نقائض للعباس، وقد وجدت فى شعر الشاعرين أبياتًا موجهة من أحدهما للآخر، ولم أجد لها رَدًّا، وهذا يقوّى الظن بضياع جزء من شعرهما، وهذا يدفعنى

إلى التنبيه إلى ضرورة مراجعة تلك الدواوين الشعرية مراجعة علمية دقيقة واستدراك ما فات على المحققين لهذه الدواوين، وخصوصًا دواوين شعراء الجاهلية وصدر الإسلام.

وتأسيسًا على ما سبق رأيت أن أتوجه صوب التأصيل لوجود النقائض فى العصر الجاهلى ممثلةً فى نقائض خفاف والعباس، والكشف عن مدى التزام الشاعرين بالأصول الفنية لفن النقائض الشعرى، وقد جاءت هذه الدراسة فى مبحثين:

الأول: الإطار المعرفى، وينقسم إلى قسمين:

أ– التعريف بصاحبى النقائض.

ب– فن النقائض.

الآخر: المضامين وطرق المناقضة:

وفيه عرضت للنقائض العشرة التى استطعت الوصول إليها، ملتزمًا ترتيبًا زمنيًا كما ورد فى رواية الأغانى، وقد اتسق هذا الترتيب مع الأحداث التى عبر عنها الشاعرين فى نقائضهما ثم عرضت لطرق المناقضة التى استخدمها الشاعران فى نقضهما للقصيدة الأولى.

... وبعد فهذه محاولة للكشف عن أصول فن النقائض وبذوره الأولى، فإن كان ثمة توفيق فمن الله سبحانه وتعالى، فهو ولى التوفيق، وإن كانت الأخرى فحسبى أنى حاولت، وما التوفيق إلا من عند الله.

أولاً: الإطار المعرفى:

أ- "صاحبا النقائض":

١- خُفَافُ بنُ نَدْبَة:

هو خُفَافُ بن عُمير بن الحارث بن الشَّريد بن رِياح بن يقظة بن عُصية بن خفاف بن امرئ القيس بن بُهثة بن سُليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس ابن عيلان بن مضر بن نزار[١]، وهو بهذا النسب ابن عم الخنساء الشاعرة وكنيته أبو خُراشة وبتلك الكنية ذكره العباس بن مرداس بقوله:

أبا خُراشَةَ أَمّا كُنْتَ ذا نَفَرٍفإنَّ قَوْمِيَ لم تأْكُلْهُمُ الضَّبُعُ[٢]

أُمة ندبة – وبها عُرف- وهى ندبة بنت أبان بن الشيطان بن قنان بن سلمة بن وهب بن عبد الله بن ربيعة بن كعب[٣].

وندبة –بضم النون وفتحها- هذه كان الحارث بن الشريد جَدُّ خُفاف قد سباها حين أغار على بنى الحارث بن كعب فوهبها لابنه عُمير فولدت له خفافاً وكانت امرأة سوداء[٤].

وخفاف شاعر مخضرم عاش فى الجاهلية وأدرك الإسلام وشهد فتح مكة وكان معه لواء بنى سليم وشهد حنيناً وثبت على إسلامه فى الردة.

وكان خفافاً شاعراً من شعراء الجاهلية وفارساً من فرسانها فهو أحد فرسان قيس وشعرائها المذكورين.

قال الأصمعى: «خفاف ودريد بن الصمة أشعر الفرسان وهو أحد أغربة العرب، أى: سودانهم، لأنه كان أسودًا حالكاً»[٥].

وخفاف من أغربة العرب، ووضعه د. عبده بدوى فى قائمة الشعراء الأغربة المتفق عليهم ويجعله ثانياً بعد عنترة العبسى وقبل السُّلَيْك بن السُّلَكة[٦].

ولا تفيدنا المصادر التى بين أيدينا بتاريخٍ لمولده ولا بتفاصيل حياته قبل الإسلام أو بعده غير أنها تذكر أنه مات فى عهد عمر بن الخطاب، وهذا ما ذهب إليه جامع شعره د. نورى القيسى[٧].

وقد تسرب سواد اللون إلى خفاف عن طريق أمه، وكان العرب يبغضون اللون الأسود، أو كما يقول د. يوسف خليف «إنّ هذا اللون يكون مصدر احتقار المجتمع الجاهلى فى تلك الفترة، ثم يوضح أنه إذا أبدى أحد هؤلاء الأغربة امتيازًا فى ناحية من النواحى، فتشعر القبيلة أنها أمام فرد تستطيع أن تنتفع به، فيمحو هذا الامتياز عنه معنويًا سواد لونه، فيعترف به أبوه، وتعمل القبيلة على تقريبه من مركز الدائرة ليقوم بدوره فى أعمال القبيلة الأساسية»[٨].

وأزعم أن خُفَافًا كان من هؤلاء الأغربة الذين تميزوا فأصبحوا فرسانًا يُشار إليهم ويتصدرون المشهد القبلى.

وتعد المهاجاة التى سجلتها مصادر الأدب بينه وبين ابن عمه العباس بن مرداس السُلَميّ من أهم الحوادث البارزة فى حياته.

ويذكر صاحب الأغانى بدء هذه المهاجاة وأسبابها فيقول: «كان بدء ما كان بين خفاف والعبَّاس أن خفافاً كان فى ملأٍ من بنى سُلَيْم، فقال لهم: إن عبَّاس بن مرداس يريد أن يبلغ فينا ما بلغ عَبَّاُس بن أنس، ويأبى ذلك عليه خصالٌ قَعَدْنَ به. فقال له فتى من رهْط العبَّاس: وما تلك الخصال يا خفاف ؟

قال: اتّقَاؤُه بخيله عند الموت، واستهانته بسبايا العرب، وقتله الأسرى، ومكالبته للصعاليك على الأسلاب، ولقد طالت حياته حتى تمنينا موته، فانطلق الفتى إلى العبَّاس فأخبره الخبر، فقال العبَّاسُ: يا ابن أخى، إن لم أكن كالأصمّ فى فضله فلست كخُفَافٍ فى جهله، وقد مضى الأصَمُّ بما فى أمس وخَلفنى بما فى غدٍ فَلمّا أمسى تَغنَّى وقال:

خَفَافُ ما تَزَالُ تَجَرُّ ذَيْلاً إلى الأَمْرِ الْمُفارِقِ للرّشَادِ

إِذَا مَا عَايَنَتْك بَنُو سُلَيْم ... ثَنَيْتَ لَهُم بِدَاهِيةٍ نَآدِ

وَقَدْ عَلِمَ المعاشِرُ من سُلَيْمٍ ... بأَنِّي فيهمُ حَسَنُ الأَيادي

فَأَوْرِدْ يَا خُفَافُ فقد بُليت ... مْبَنِى عَوْفٍ بَحيّةِ بَطْنِ وَادِي

قال: ثم أصبح فأتى خفاف وهو فى ملأٍ من بنى سُليم فقال: قد بلغنى مقالُتك يا خُفَافُ والله لا أشتم عِرضك ولا أَسُبُّ أباك وأمك ولكنى رام سوادك بما فيك، وإنك لتعلم أنى أحمى الْمُصاب وأتكرم على السَّبْى وأطلق الأسير وأصون السبيَّة، وأمّا زَعْمُك أنّي أتَّقِي

بخيلى الموت فهات من قومك رجلاً اتقيتُ به، وأما استهانتى بسبايا العرب فإنى أحذو القوم فى نسائهم بفعالهم فى نسائنا، وأما قتلى الأسرى فإنى قتلت الزُّبيدىّ بخالك إذْ عجزت عن ثأرك، وأما مكالبتى الصعاليك على الأسلاب فوالله ما أتيت على مسلوبٍ قط إلا لُمت سالبه، وأما تمنيك موتى فإنْ مِتُّ قبلك فأغن غنائى، وإن سُليماً لتعلم أنى أخفُّ عليهم مَؤُنَة وأثقل على عدوهم وَطْأَةً منك، وإنك لتعلم أَني أَبَحْتُ حِمى بنى زُبَيد وكسرْتُ قرنى بنى الحارث وأطفأْتُ جَمْرة خَثْعم، وقلّدْتُ بنى كنانة قلائد العار ثم انصرف»[٩].

وتبدأ بعد ذلك أهاجى متبادلة بين خفاف والعباس، والتى تلقى بعض الضوء على حياة خفاف ومواقفه المتعددة فى حروبه وسلمه، ويمكن لنا أن نستشف من تلك الأهاجى مكانة خفاف ومنزلته؛ فهو رأس جماعة تأتمر بأمره، وهو فارس يتبعه فرسان قبيلته، واستمر حاله هكذا فى إسلامه؛ فهو فارس يشهد الغزوات مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ويثبت على إسلامه فى الردة، ويمدح أبا بكر –رضى الله عنه– لأنه قاوم المرتدين، وقام برثائه بعد وفاته، وفى ذلك يقول خفاف:

إنَّ أَبـــا بَكْـــرٍ هُـــوَ الغَـــيْثُ إذْ ... لَـــمْ تَشْمَـــلِ الأَرْضَ سَـــحابُ بمـــاءْ
تَـــــاللهِ لا يُـــــدْرِكُ أيَّامَـــــهُ ... ذُو طُـــــرَّةٍ خَـــــافٍ ولا ذُو حِـــــذاءْ
مَـــنْ يَسْـــعَ كـــى يُـــدْرِكَ أَيَّامَـــهُ ... يَجْتهـــد الشَّـــدَّ بـــأَرْضٍ فَضَـــاءْ
المَـــرْءُ يَسْـــعَ ولَـــهُ رَاصِـــدٌ ... تُنْـــذِرُهُ العَـــيْنُ وثَـــوبُ الضّـــرَاءْ[١٠]

وخفاف من الشعراء المجيدين جعله ابن سلام فى الطبقة الخامسة من الفرسان مع مالك بن نويرة ومع ابنى عمه: صخر ومعاوية ابنى عمرو بن الشريد ومالك بن جمار الشمخى[١١]، وكان خفاف مولعًا بصفات الفارس فنراه فى شعره مفتخرًا بأخلاقه الكريمة وشمائله الشخصية من الشجاعة والإقدام والكرم، كما فخر بقبيلته وقوتها وشجاعتها، كما ذكر المرأة فى مقدمات قصائده على عادة الشعراء الجاهليين، وقد يكون غزلاً مصنوعًا أقرب إلى الفن منه إلى الواقع والحقيقة، ومما يدل على شاعريته ومكانته الشعرية أن الأصمعى قد اختار له أربع مقطعات، بين قصيدة ومقطعة، فى الوقت الذى لم يختر لأى شاعر آخر من الشعراء الواحد والسبعين الذين اشتمل عليهم كتاب الأصمعيات مثل هذا العدد من

المقطعات[١٢]، والفن الشعرى الأكثر بروزًا وحضورًا فى شعر خفاف هو نقائضه مع العباس بن مرداس والتى سوف أعرض لها تفصيلاً بمشئة الله تعالى.

وقد ذكره صاحب ديوان الخيل فى الجاهلية وأورد له ثمانيةً وأربعين بيتًا، وهو فيها يفتخرٌ بنفسه واصفًا خيله وخيل قبيلته[١٣].

٢- العباس بن مرداس:

هو العباس بن مرداس بن أبى عامر بن رفاعة، وقيل جارية بن عبد بن عبس بن رفاعة بن الحارث بن بهثة بن سليم بن منصور بن عكرمة بن خصْفة بن قيس عيلان بن مضر[١٤]، وكنيته أبو الهيثم وأبو الفضل.

ولمرداس أكثر من زوجة أشهرن الخنساء الشاعرة ومنها ولده: هبيرة، وجزء ومعاوية وسراقة، وللعباس أختٌ هى عمرة بنت مرداس وأمها الخنساء أيضاً[١٥].

وتذهب بعض المصادر إلى أن الخنساء الشاعرة هى أم العباس بن مرداس[١٦] ولكن هناك رواية عن ابن الكلبى تفيد أن أم ولد مرداس جميعاً الخنساء إلا العباس فإنها ليست أمه، ولم يذكر مَنْ أمه[١٧].

أما الجاحظ فيدفع أن تكون الخنساء أُمَّه ويعين أنَّ أُمَّ العباس زنجية وذلك فى سياق هجاء جرير لبنى تغلب حين قال:

لا تَطْلُبن خُؤولةً فى تَغْلبٍ فالزّنجُ أَكْرمُ مِنْهُمُ أَخْوالاَ

فغضب سنيح بن رباح الزنجى فهجا جريراً وفخر عليه بالزنج فقال:

ما بَال كَلْبٌ من كُلَيْبٍ سَبّنَاأنْ لم يُوازن حَاجِبًا وعِقَالا

وفيها يذكر الشاعر أسماء عدد الفرسان الذين يتميزون بالشجاعة ويفاخر بهم الزنج ومن هؤلاء خفاف بن ندبة والعباس، فيقول سُنَيْح:

والزّنْجُ لَوْ لاَقَيْتَهُم فى صَفِّهِم ْلاَقَيْتَ ثَمَّ جَحَاجِحًا أَبْطَالا

...كَان ابنُ نَدْبَة فِيكُمُ من نَجْلِنا وخُفَافُ الْمتَحمّلُ الأَثْقَالا

...وَسُلَيكُ اللّيثُ الهِزَبرُ إذَا عَدا والقَرْمُ عَبَّاسُ عَلوكَ فَعَالا

ويوضح الجاحظ بعدها «.. ثم ذكر أبناء الزنجيات حين نزعوا إلى الزنج فى البسالة والأنفة، فذكر خفاف بن ندبة، وعباس بن مرداس، وابنى شداد: عنترة الفوارس وأخاه هراسة،

وسليك بن السُّلكة، فهؤلاء أُسْد الرِّجال، وأشدُّهم قلوبًا وأشجعهم بأسًا، وبهم يُضْرَب المثل»[١٨].

ونستطيع أن نتبين من حديث الجاحظ أمرين مهمين أولهما: أن العباس ابنُ لمنجبةٍ زنجية وليس ابنًا للخنساء، وآخرهما: تميزه ومعه خفاف بن ندبة بالفروسية والشجاعة والبأس، وقد أورد صاحب ديوان الخيل للعبّاس خمسين بيتًا فى وصفه الخيل وقال فيه «ويدعى فارس العُبَيْد، وهو فرسه»[١٩].

وهكذا يتأكد أن أُمَّ العباس هى هند بنت سنة بن سنان وهى إحدى المنجبات وكانت زنجية سوداء وتكون الخنساء الشاعرة زوجة أبيه وأم إخوته.

ولم تتحدث المصادر عن العباس إلا فى سطورٍ قليلة معدودة فما، نعرف عنه إلا أنه حرّم الخمر على نفسه فى الجاهلية وكانوا إذا سألوه لمَ لم تشرب الخمر فإنها تزيد فى جرأتك، أجابهم: لا أشرب شراباً أصبح سيد قومى وأمسى سفيههم[٢٠].

ويمكننا أن نميز من خلال شعره الذى قاله قبل أن يسلم عهدين متميزين الأول يظهر فيه العباس فارساً من فرسان قومه وشاعراً قبلياً مدافعاً عن قبيلته مشاركاً فى أيامها وحروبها وهو مع شرفه ومكانته الفاضلة فى القبيلة فرد فيها، والعهد الآخر: تَولَّى العباس فيه زعامة قبيلته بعد موت صخر أخى الخنساء، ولقد تنازع وابن عمه خفاف على هذه الزعامة وكان لكل منهما أتباعه وأنصاره، ويستمر بينهما اللجاج ويتهاديان الهجاء ويناقض كل منهما الآخر، وتشغل نقائض العباس وأهاجيه فى خفاف جزءً كبيرًا من ديوانه فقد خَصَّهُ بتسع عشرة قطعة أو قصيدة حتى إذا ما أدركا الإسلام أسلما وحسن إسلامهما ويكون للرجلين فيه نصيبٌ كبيرٌ من الفروسية والمشاركة فى الغزوات.

وما يهمنا فى معرض الحديث عن العباس قبل الإسلام العهد الآخر فى شعره فيها والمتمثل فى القصائد التى قالها يناقض خفاف بن ندبة ابن عمه.

ويمكن أن نحدد زمنها بمقتل صخر بن عمرو بن الشريد زعيم بنى سُليم وقد خلّف هذا النزاع شعراً كثيراً أو نقائض.

أما عن حياته فى الإسلام فلم يكن العباس من متقدمى المسلمين، فقد فشا الإسلام فى القبائل وذاع أمره وسمع به العباس وقومه، ولكنه لم يسارع إليه.

وهناك رواية عن خبر إسلام العباس يرويها صاحب الأغانى، وقد أسلم العباس[٢١] قبل فتح مكة بقليل، وقدم المدينة على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– حيث أراد المسير إلى مكة عام الفتح، فواعَدَ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قُديدًا، وقال: ألقنى أنت وقومك بقُدَيْد، فلما نزل رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قُديدًا وهو ذاهب لقيه عَبَّاسٌ فى ألفٍ من بنى سليم، وفى ذلك يقول عَبَّاسُ بن مرداس:

بَلّغ عِبَادَ الله أنَّ محمـدًا رَسُولُ الإِلَهِ راشدٌ أَيْنَ يَمَّما
دَعَا قَوْمَه واسْتَنْصَرَ الله رَبّه فَأَصْبَحَ قَدْ وَافَى الإلهَ وأَنْعَما
عَشيَّةَ وَاعدْنا قُديدًا مُحَمَّدا يَؤُمُّ بِنَا أمرًا من الله مُحْكَمَا[٢٢]

وهذا ما يفسر الفخر الشديد بقومه فى قصائده الإسلامية حيث يمتزج الزهو بالنصر والاعتزاز بقومه الألف الذين نصروا الرسول مع الفخر بالإسلام والاعتزاز بالدين[٢٣].

وعُدّ العباس فى المؤلفة قلوبهم فأُعطى من غنائم حنين، وقد لزم العباس البادية بعد الإسلام فلم يهاجر إلى مكة أو المدينة، أما عن وفاته فلم يقف جامع ديوانه على سنة بعينها ولم يذكر أحد ممن ترجم له سنة بعينها وإن كان ابن حجر يشير متردداً إلى أنه مات فى خلافة عثمان بن عفان[٢٤]، ونجد د. على علام يقطع بوفاته فى خلافة عمر بن الخطاب سنة ١٨هـ تقريبًا، ولا أعلم المصدر الذى اعتمد عليه فى تحديد تاريخ وفاة العباس[٢٥].

ب– فن النقائض:

والنقائض لغةً: جمع نقيضة، مأخوذة فى الأصل من نقض البناء إذا هدمه، والحبل إذا حَلَّهُ وضده الإبرام، ويكون للبناء والحبل والعهد، ونَاقَضَه فى الشىء مُنَاقضَةً ونِقاضًا خالفه، والمناقضة فى القول: أن يُتكلم بما يتناقض معناه والمناقضة فى الشعر أن ينقض الشاعر الآخر ما قاله الأول حتى يجىء بغير ماقال والنقيضة الاسم يجمع على النقائض[٢٦].

أما الصورة الاصطلاحية التى انتهى إليها هذا الفن منذ الجاهلية؛ فالأصل فيها أن يتجه شاعر إلى آخر بقصيدة هاجياً أو مفتخراً فيعمد الآخر إلى الرد عليه هاجياً أو مفتخراً ملتزماً البحر والقافية والروى الذى اختاره الأول، معنى هذا أنه لابد من وحدة الموضوع فخراً أو هجاءً أو سياسة أو رثاءً أو نسيباً أو جملة من هذه الفنون المعروفة إذ كان الموضوع هو مجال المناقشة ومادّة النقائض، ولابد من وحدة البحر فهو الشكل الموسيقى الذى يجمع

بين النقيضتين ويجذب إليه الشاعر الثانى بعد أن يختاره الأول، ولابد من وحدة الروى فلذلك هو النهاية الموسيقية المتكررة التى تعد جزءً من النظام الموسيقى العام للمناقضة، ثم بقيت حركة الروى ولابد من وحدتها أيضاً إتماماً لذلك التنسيق الوزنى وإن اختلفت فى بعض النقائض[٢٧].

أما المعانى فالأصل العام فيها المقابلة والاختلاف؛ لأن الشاعر الثانى همه أن يفسد على الأول معانيه فيردها عليه إن كانت هجاء ويزيد عليها مما يعرفه أو يخترعه، وإن كانت فخراً كَذَّبه فيها أو فسرها لصالحه هو أو وضع إزاءها مفاخر لنفسه وقومه، فجانب المعنى إذاً هو مناط النقائض ومحورها الذى عليه تدور، يتخذ عناصره من الأحساب والأنساب والأيام والمآثر والمثالب [٢٨].

ونخلص مما سبق إلى أن الأصول الفنية التى يقوم عليها فن النقائض الشعرى أربعة هى:

١- نقض المعانى: حيث هو المحور الأساسى فى النقائض؛ فالأصل هو أن يعنى الشاعر الآخر بإفساد معانى الشاعر الأول معنىً معنىً على أساس من المقابلة.

٢- وحدة الموضوع: فعلى الشاعر الناقص أن يعالج فى نقيضته الموضوع نفسه الذى عالجه خصمه، بحيث يتفقان فخرًا أو هجاءً أو هما معًا.

٣- وحدة الوزن الموسيقى (البحر العروضى)، إذ يلتزم الشاعر الناقض ما اختاره الشاعر الأول، «ثم هو إطارفنى ومظهر من مظهر القدرة الشعرية؛ إذ إن الناقض الفحل الذى يبدع من خلال هذا الإطار ويتفوق على صاحبه على الرغم من أن الشكل المعروض مفروض عليه ليس مختارًا فيه»[٢٩].

٤- وحدة القافية: إذ إن القافية من اللوازم الموسيقية المتكررة التى ارتضاها الشاعر الأول واختارها نغمة موسيقية تظهر جانبًا من براعته وقدرته الفنية، فدخلت بذلك مجال المنافسة بين الشاعرين كنغمة للتنسيق الوزنى، وجزء من النظام الموسيقى العام للمناقضة[٣٠].

وسنحاول أن نتبين مدى التزام كلا الشاعرين –خفاف والعباس– بتلك الأصول الفنية فى نقائضهما وطرق المناقضة التى استخدمها كلاهما.

ثانيًا: المضامين وطرق المناقضة:

يحدد صاحب الأغانى بداية انطلاق النقائض بين العباس وخفاف، موضحًا السبب الذى أثار تلك النقائض وهو النزاع حول زعامة قبيلة بنى سليم والتى آلت للعباس بن مرداس بعد وفاة عباس بن أنس المعروف بالأصم، يقول الأصبهانى:

«كان خفاف بن ندبة فى جماعة من قومه، فقال: إنّ عَبَّاس بن مرداس ليريد أن يبلغ فينا مبلغ عَبّاس بن أنس الأَصَم؛ ويأبى عليه خصالٌ قَعَدْنَ به عن ذلك، فقال فتى من رهط عَبّاس: ما تلك الخصال يا خُفَاف؟ فقال: اتّقاؤُه بخيله عن الموت، ومُكالَبتُه الصعاليك على الأسلاب، وقتله الأسرى، واستهانتُه بسبايا العرب، وايم الله، لقد طالت حَياتُه حتى تمنَّينا موته. فانطلق الفتى إلى العبّاس فحدَّثه الحديث؛ فقال العباس: يا ابْن أخى، إلاَّ أكُنْ كالأصَمِّ فى فَضْلِهِ فلسْتُ كَخُفافٍ فى جهله، وقد مضى الأصمُّ بما فى أمس وخَلَّفنى لما فى غد، فلمَّا أَمْسَى تَغَنّى، فقال:

– النقيضة الأولى:

١– خُفـاف أَمَـا تَـزالُ تَجُـرُّ ذَيْـلاً ... إِلَـى الأَمْـرِ المُقـرِّبِ للْفَسَـادِ
٢– وَقَـدْ عَلِـمَ المعَاشِـرُ مِـنْ سُـلَيْمٍ ... بِـأَنّي فِـيهُمُ حَسَـنُ الأَيَـادِي
٣– وأنِّـى يَـوْمَ جَمْـع بَنِـى عُطَيْـفٍ ... حَمَلْـتُ بِحَالِـكٍ وَهِـجَ المَـرَادِي
٤– وأنِّـي لا أُعَيَّـر فـي سُـلَيْمٍ ... بَـرَدِّ الخَيْـلِ سـالمةَ الهَـوَادِي
٥– وأنِّـي فـى مُلِمَّـةٍ كُـلِّ يَـوْمٍ ... أَقِـي صَـحْبِي وفـى خَيْلِـي تَعـادِي
٦– ولـم أَسْـلُبْ بحَمْـدِ الله كَبْشًـا ... سِـلاَحًا بَـيْنَ مُخْتَلـفِ الصِّـعَادِ
٧– ولـم أَحْلُـلْ لِمُحْصَـنةٍ نِطَاقًـا ... وَلَـم أَرَ عِنْقَهـا إلاَّ مُـرَادِي
٨– فَـأَوْرِدْ يَـا خُفَـافُ فَقَـدْ مُنِيـتُمْ ... بَنـي عَـوفٍ بِحَيّـةِ بَطْـنِ وَادِ

فلمَّا أصبح أتى خُفَافًا، وهو فى مَلأٍ من قومه، فقال: قد بلغنى مَقَالُكَ يا خفاف، وايم الله، إنّكَ لتعلم أنّى أحمى المُصاب، وأكره السَّلَب، وأطلق الأسير، وأصون السَّبيّة، فأما زَعْمُكَ أنّى أتَّقى بخيلي عند الموت، فهاتِ لى من قومكِ رُجَلاً اتَّقَيْتُ به، وأمّا قَتْلي الأَسْرَى، فإنى قَتلْتُ الزّبيدىَّ بخالك، وأما سَلْبى الأسير، فواللهِ ما أتيتُ على مَسْلُوبٍ قطّ إلاّ لُمْتُ

سالِبَه، وأما استهانتى بالسَّبَايا، فإنّى أحذُوا القومَ فى سباياهم فعالَهم فى سبايانا، وأمّا تَمنِّيكَ مَوْتى، فإن مِتُّ قبلكَ فأغن غنائى. ثم انصرف، فقال خفاف مجيبًا للعبّاس عن قوله:

١- لَعَمــرُ أَبِيــكَ يَــا عَبّــاسُ إِنّــي ... لَمُنْقطِــعُ الرِّشَــاءِ مــن الأَعَــادِي
٢- وَإِنّــي قَــدْ تُعَاتِبُنــي سُــلَيْمٌ ... عَلَــى جَــرّ الــذّيُول إلــى الفَسَــادِ
٣- أَكُــلَّ الــدَّهْر لا تَنْفَــكُّ تَجْــرِي ... إِلــى الأَمْــرِ الْمُفَــارِقِ للسَّــدَادِ
٤- إِذَا مــا عَايَنَتْــكَ بَنُــو سُــلَيْمٍ ... تَبِيــتُ لهــمُ بِدَاهيــةٍ نَــآدِ
٥- فَزِنْــدُكُ فــى سُــليمٍ شَــرُّ زَنْــدٍ ... وَزَادُكَ فــى سُــلَيْمٍ شــرُّ زَادِ
٦- أَلاَ للهِ دَرُّكَ مِــنْ رَئِيــسٍ ... إِذَا عَادَيْــتَ فــانْظُر مَــنْ تُعــادي
٧- جَرَيْــتُ مُبــرِّزاً وجَرَيْــتَ تَكْبُــو ... عَلَى تَعَبٍ فَهَــلْ لَــكَ مــن مَعَــادِ؟
٨- ولَــم تَقْتُــلْ أَسِــيرَكَ مِــنْ زُبَيْــدٍ ... بخَــالى بَــلْ غَــدَرْتَ بمُسْــتَقَادِ[٣١]

تلك هى النقيضة الأولى بين العباس وخفاف، والنص الذى رواه صاحب الأغانى على قدر كبير من الأهمية لأنه يبوح لنا بعدد من الدلالات منها:

١- أن المناقضة جاء نثرًا وشعرًا، وهذا دليل على أن النقائض قد تجمع بين فنى النثر والشعر معًا.

٢- كان البادئ فى المناقضة نثرًا خفاف وأجابه العباس نثرًا، ونتبين من رد العباس أنه جاء ناقضًا لكل ما جاء فى نثر خفاف معنًى معنًى؛ فقد تتبع العباس ما أورده خفاف من معانٍ فنفاها مثبتًا عكس تلك المعانى لنفسه؛ فقد هجاه خفاف بأنه جبان ينازع الفقراء على الغنائم وهو يقتل الأسرى ويستهين بسبايا العرب، فينقض العباس ذلك مثبتًا أنه شجاع مقدام عند الحرب، كريم يعف عن الأسلاب، ورحيم يطلق الأسرى ويعفو عنهم ويصون السبايا ويحافظ عليهن.

٣- كان البادئ فى المناقضة شعرًا هو العباس وصاحب الناقضة هو خفاف، وقد أثبت العباس فى نقيضته الشعرية (المنقوضة) ما جاء فى نثره من معانٍ وقد زاد عليها تحذيره لخفاف من عواقب ما يقوم به من أمور قد تفسد أواصر الود والقرابة بني عشيرتيهما، مؤكدًا

على تميزه بخصال طيبة تتفق وطبيعته كفارس وزعيم لقبيلة تعلم مكانته تمامًا، ونلاحظ أن خفاف وهو صاحب (الناقضة) قد اعتمد فى قصيدته على الهجاء مبديًا السخرية مما جاء على لسان العباس، ومن ادعائه الشجاعة والفروسية التى لا يملك منها شيئاً، ومنها تلك الرواية عن قتله الزبيدى ثأرًا لخال خفاف، فيسخر خفاف موضحًا أنه قد قتل رجلاً مقيدًا أسيرًا لا حول له ولا قوة، وهذا يعد غدرًا لا ثأرًا، محذرًا إياه من معاداته لأن خفافًا يرى أنه فارس شجاع بينما العباس لا يتميز بتلك الصفات؛ فلا مقارنة بينهما.

٤- اعتمد العباس فى قصيدته الأولى (المنقوضة) على الفخر ولم يلجأ فيها إلى الهجاء بل لجأ إلى التحذير والوعيد؛ لذلك اعتمد فى تعبيره عن الفخر على الأساليب الخبرية المؤكدة بإنَّ، فاستخدم الأسلوب الخبرى المؤكد بإنَّ أربع مرات فى أبياته الثمانية، وأورد الجملة الفعلية المنفية بـ (لم) ثلاث مرات فى معرض الفخر أيضًا إذ ينفى عنه ما رماه به خفاف نثرًا.

بينما نجد خفافًا فى نقيضته (الناقضة) قد جمع بين الفخر والهجاء واعتمد فى تعبيره عن ذلك على الأساليب الخبرية والإنشائية؛ فاستخدم الأسلوب الخبرى المؤكد بإنَّ مرتيْن فى معرض الفخر، واستخدم النداء والتعجب والشرط، وأقام مقارنة بينه وبين العباس مستخدمًا الجملة الفعلية الماضية، ثم يستخدم الجملة الفعلية المنفية بـ (لم) مرة واحدة نافيًا فيها ما ادعاه العباس من شجاعة.

٥- نستطيع أن نتبين أنه لا يمكن قراءة القصيدة الثانية (الناقضة) بمعزلٍ من القصيدة الأولى (المنقوضة) لأنها قد جاءت استجابة لها؛ فقصيدة العباس تعد بمثابة المثير لقصيدة خفاف الثانية، فجاءت أبيات خفاف ردًا على أبيات العباس، وعليه فالمنقوضة هى الدافع لإنتاج الناقضة، ويمكن بهذا أن نزعم أننا أمام نمط من أنماط التناص الأسلوبى.

٦- التزم خفاف فى قصيدته (الناقضة) الوزن الخليلى لقصيدة العباس (المنقوضة) فجاءت أبياته فى بحر الوافر ملتزمًا حرف الروى نفسه وهو الدال المكسورة، وبذلك تكتمل الأركان الفنية فى تلك النقيضة لفن النقائض الشعرى، وجاء عدد أبيات القصيدتين متساويًا (ثمانية أبيات لكل قصيدة).

٧- قصيدة العباس كما أوردناها لم يثبت منها جامع ديوانه إلا أربعة أبيات، وأغفل ذكر الرواية الأخرى فى الأغانى والتى تأتى فيها القصيدة كاملةً مؤلفةً من ثمانية أبيات كما أثبتناها، وكذلك فعل جامعًا شعر خفاف، فلم يرد فى شعر خفاف عندهما سوى بيتين فقط، ولم يلتفتا إلى تلك الرواية فى الأغانى والتى استدركها د. أحمد عمار فى مستدركه على شعر خفاف وهذا ما أثبتناه فى تلك النقيضة[٣٢]، وهذا يدعونا إلى مراجعة الدواوين السابق جمعها وتحقيقها خصوصًا ما يمثل العصرين الجاهلى والإسلامى فى صدره الأول.

- النقيضة الثانية:

ويكمل صاحب الأغانى روايته فيقول: «وإنّ رهط خُفاف لاموه وقالوا: اكفف عن الرجل، فقال: كيف أَكُفُّ عن رجُل يريد أن يَترَنا أمرنا بغير فضل؟ وقال رهط العباس له: أيها الرجل، اكفف؛ فقال قولاً جميلاً؛ ثُم قال:

١- هَلْ تَعْرِفُ الطَّلَلَ القديمَ كأَنَّهُ ... وَشْمٌ بأَسْفَلَ ذِي الخيام مُرَجَّعُ
٢- بَقيتْ مَعارِفُه عَلَى مَرِّ الصَّبَا ... بَعْد الجميعِ كَأَنَّهُ قَدْ يَمْرُع
٣- دَارُ التى صَادَتْ فُؤَادَكَ بَعْدما ... شَمِل المَفارِقَ منكَ شَيْبُ أَرْوَعُ
٤-وَزَعَمْتَ أَنَّكَ لاَ تَراحُ إلى الصِّبا ... وقَلَتْكَ منه شَبِيبَةٌ لا تَرْجعُ
٥- يَأَيُّها المرْءُ السَّفيهُ أَلا تَرَى ... أَنِّى أُضَرُّ إذا هَوِيتُ وأَنْفَعُ
٦- وأَعيشُ ما قَدَر الإلهُ على القِلَى ... وأَعِفُّ نَفْسى عن مَطامعَ تُطْمِعُ
٧- كَرَماً عَن الخَطَرِ اليَسِيرِ ولا تَرَى ... نَفْسِي إِلَى الأَمْر الدَّنَىّ تَطَلَّعُ
٨- وأَرِدُّ ذَا الضِّغن اللّئيم برَيْبِهِ ... حَتّى يَمُوتَ ولَيْس فينا مَطْمَعُ
٩- للهِ دَرُّك لا تَمَنَّ مَمَاتَنا ... فالموتُ وَيْحَكَ قَصْرُنا والمَرْجِعُ
١٠- لَوْ كَانَ يَهْلِكُ مَنْ تَمَنّى مَوْتَه ... حَلّتْ عليك دُهَيَّةٌ لاَ تُرْفَعُ
١١- ومكَثْتَ فى دَار الهَوَانِ مُوَطَّأً ... بالذُّلّ لَيْس لِداركمْ مَنْ يَمْنَعُ

فقال خُفَافُ مجيباً له:

١- عَجِبَتْ أُمَامةُ إذْ رَأَتْنِى شَاحِباً ... خَلَقَ القَمِيصِ وأَنّ رَأْسِيَ أَصْلَعُ
٢- وتَنَفَّسَتْ صُعُداً فَقُلْتُ لَها اقْصِرى ... إنّى امْرُؤٌ فِيمَا أَضُرُّ وأَنْفَعُ

٣- مَهْـلاً أَبَـا أَنَـسٍ فـإنّى لِلَّـذى ... خَلّـى عَليـك دُهَيَّـةْ لا تُرْفَـعُ
٤- وَضَـرِبْتُ أُمّ شُـؤُونِ رَأْسِـكَ ضَـرْبَةً ... فَاسْـتَكَّ مِنْهَـا فـى اللِّقـاءِ المَسْـمَعُ
٥- نَعْلَـىَّ حَـذْوُ نِعَالِهـا ولرُبَّمـا ... أَحْـذُو العِـدَا ولكُـلِّ عَـادٍ مَصْـرَعُ
٦- لا تَفْخَـرَنَّ فَـإِنَّ عُـودِي نَبْعَـةٌ ... أَعْيَـتْ أَبـا كَـرِبٍ وعُـودُك خِـرْوَعُ
٧- ولقـد أَقُـودُ إلـى العَـدُوّ مُقَلِّصـاً ... سَـلِسَ القِيَـادِ لـه تَلِيـلٌ أَتْلَـعُ
٨- نَهْـدَ المَرَاكَـل والدّسِـيع يَزِينُـه ... شَـنِجُ النّسَـا وأَباجِـلُ لا تُقْطَـعُ
٩- وعَلَـىَّ سَـابِغَةٌ كَـأَنَّ قَتِيرَهـا ... حَـدَقُ الجَنَـادبِ لَـيْس فيهـا مَطْمَـعُ
١٠- زَغْـفٌ مُضَـاعَفَةٌ تَخَيَّـرَ سَـرْدَها ... ذُو فَـائِش وبَنَـو المُـرَار وتُبَّـعُ
١١- فـى فِتْيَـةٍ بـيضِ الوُجُـوهِ كَـأَنَّهُمْ ... أُسُـدُ عَلَـى لَحْـم بِبِيشَـةَ طُلَّـعُ
١٢- لا يَنْكِلُـون إذا لقُـوا أَعْـدَاءهمْ ... إنَّ الحِمَـامَ هُـو الطّرِيـقُ المَهْيَـعُ[٣٣]

يتضح من الأبيات السابقة أن كلا الشاعرين يفتخر بنفسه، فيبدأ العباس مفتخرًا بالقوة والعزة والسيادة والكرم والهيبة والشجاعة والنجدة، وغيرها من معانى الفخر، وذلك بعد أن بدأ قصيدته بالنسيب الذى استغرق أربعة أبيات كاملة فيرد عليه خفاف فيشكّك فى تلك الصفات ويقلّل منها، ثم يفتخر بنفسه محاولاً التميز والانفراد، ويبدو تتبع خفاف للعباس فى نقيضته حيث حرص على البدء بالمقدمة نفسها من حديث متخيل إلى امرأة ما، وجاء ذلك الحديث قصيرًا فلم يستغرق سوى بيت ونصف، إذ تعجل خفاف الرد على ما جاء فى نقيضة العباس؛ فيبدأ خفاف وهو الناقض فى تتبع المعانى التى أوردها العباس فيقوم بنقضها بانياً فى المقابل معانى بها الشجاعة والإقدام والبأس فينسبها لنفسه، وقد خرج خفاف إلى وصف جواده بصفات تجعل جواده منفردًا متميزًا وكأنه بهذا يريد أن يؤكد للعباس أن تميز جواده نابع من تميز صاحبه، وهو الفارس المقدام الذى يصاحبه فرسان أقوياء مثل الأسود التى لا تخشى أحدًا، وقد التزم خفاف وهو صاحب الناقضة البحر العروضى نفسه وهو الكامل وحرف الروى نفسه وهو العين المضمومة، ويجب التنبيه على أن هذه النقيضة لم ترد فى ديوان العباس ولا مجموعيّ شعر خفاف.

– النقيضة الثالثة:

ويستكمل صاحب الأغانى روايته فيقول: «وكان خُفافُ قد كفّ عن العبّاس، حتى أتاه غلامٌ من قَوْمه، فقال: أبى العبَّاسُ إلاّ جُرأةً عليك وعَيْباً لك؛ فغَضِبَ خُفَافُ، ثم قال: ما يَدْعُوه إلى ذلك؟ فوالله إنّ أباه لزائطُ السّهْم، وإنّ أُمَّه لخفيفة النحص، ولئن طلب مَسْعَايَ ليعَلمن أنَّه قصيرُ الخُطوة، أجذم الكف، وما ذَنْبُنا إليه إلاّ أنّا استنقذنا أباه من عِصِيّ بنى حِزَام، وكافحَنْا دُونَه يوم بنى فِرَاس، ونَصْرَنا أباه على حَرْب بن أميّة، وقال خفافٌ فى ذلك:

١– لَـنْ يَتْـرُكَ الـدَّهْرَ عَبَّـاسٌ تَقَحُّمَـهُ حَتَّـى يَـذُوقَ وَبـالَ البَغْـى عَبَّـاسُ
٢– أَمْسَـكْتُ عَـنْ رَمْيـهِ حَـوْلاً ومَقْتَلُـه بـادٍ لِتَعْـذُرنى فـى حَرْبِـه النَّـاسُ
٣– عَمْـداً أَجُـرُّ لَـهُ ثَـوْبى لأَخْدَعَـهُ عَـن رَأْيِـه ورَجَـائى عِنْـدَه يَـاسُ
٤– فـالآنَ إذْ صَـرَّحَتْ مِنْـه حَقِيقَتُـهُ ظُلْماً فَلَـيْسِ بِشَـتْمى شَـاتِمى بَـاسُ
٥– أَجُـدُّ يَوْمًـا بقَـوْلى كُـلَّ مُبْتَـدِئٍ كَمـا يَجُـدُّ بكـفِّ الجـاذِرِ الفَـاسُ
٦– تَـأْبَى سُـلَيْمُ إذا عَـدَّتْ مَسـاعِيهَا أن يُحْـرِزَ السَّـبْقَ عَبَّـاسٌ ومِـرْدَاسُ
٧– أَوْدَى أَبُـو عَـامرٍ عَبَّـاسُ مُعْتَرِفـاً أَنّـا إذا مـا سُـلَيْمُ حَصّـلَتْ رَاسُ

فَبلَغ العبَّاس أَمْر خُفَاف، فأَتاه، فالتَقيا عند أَسْماءَ بن عُرْوة بن الصَّلْت بن حِزَام بن عبد الله بن حازم بن الصَّلْت، وكان مَأْمُوناً فى بنى سُلَيم، فقال العبَّاسُ: قد بلغنى قولُك يا خُفَاف، ولعمرى لا أَشْتُم أَباك ولا أُمَّك ولكنِّى رامٍ سَوادَكَ بما فيك، والله ما كُنْتُ إلى ذمِّك بالْهَيْمان، ولا إلى لحْمِكَ بالقَرِم، وإنّ سُلَيمَ لتعلم أَنِّى أَبحْتُ حِمَى بنى زُبيد، وأَطْفَأْتُ جَمْرة خَثْعم، وكَسَرْتُ قرني بنى الحارث بن كعب وَقلّدْتُ بنى كِنَانة قلائدَ العار، وإنّى يا خُفاف لأَخَفُّ مِنْك على بنى سليم مَؤُنةً، وأثقل مِنْك على عَدُوّهم وَطْأَةً، وقال مجيباً له:

١– إنِّـي رَأَيْـتُ خُفَافـاً لَـيْسَ يُهْنِئُـهُ شَـىءٌ سِـوَى شَـتْمِ عَبَّـاسِ بـن مِـرْدَاسِ
٢– مَهْـلاً خُفَـافُ فـإنَّ الحُمْـقَ مَغْضَـبةٌ والحُمْـقُ لَـيْس لَـهُ فـى النَّـاسِ مـن آسِ
٣– سَـائِلْ سُـلَيْماً إذا مـا ◌َغـارةٌ لَحِقَـتْ مِنْهـا فَـوارسُ حُشْـدٌ غَيْـرُ أَنْكَـاسِ
٤– مِـنْ خَـثْعَمٍ وزُبَيْـدٍ أَوْ بَنـى قَطَـنٍ أَوْ رَهْـطِ فَـرْوةَ دَهْـرا أو سُـرَى النَّـاسِ
٥– يُنْبُـوا مَـن الفَـارسُ الحـامي حَقِيقَتَـه إذَا أَتَـوْكَ بحـامٍ غَيْـرِ عَبَّـاسِ

٦- لاَ يَحْسبُ النَّاسُ قَولَ الحقِّ مُقْتَرِفاً فانْظُر خُفَافُ فَما فى الحقّ مِن بَاسِ
٧- مَنْ زَار خَيْل بَنى سَعْدٍ مُسَوّمَةً يَهْدِى لأوّلِها لأْىُ بنُ شَمَّاسِ
٨- يَومَ اعْتَرضتُ أَبا بَدْرٍ بجَائِفةٍ تَعْوى بعِرْقٍ من الأَحْشَاءِ قَلاَّسِ
٩- أُدْعَى الرّئيسُ إِذَا مَا حربكُم كَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا لكُمُ والأَمْرُ للرَّاسِ
١٠- حَتّى إِذَا انكَشَفَت عنكم عَمَايتُها أَنْشَأْتَ تَضربُ أَخْمَاساً لأسْدَاسِ[٣٤]

يبدأ خفاف فى تلك النقيضة ويجمع فى كلامه بين النثر والشعر، فيبدأ هاجيًا العباس نثرًا واصفًا أباه بأنه طائش السهم وأمه بالنحافة الشديدة، ويهجو العباس نفسه بالجبن الشديد مفتخرًا بأنه وقومه يدافعون عن العباس وأبيه فى حروبهما، ثم يستكمل هجاءه شعرًا ساخرًا من العباس مهددًا متوعدًا إياه بسوء العاقبة مفتخرًا بما له من شجاعة وإقدام ورئاسة تعترف بها سُليم كلها نافيًا أن يكون العباس زعيمًا متقدمًا فى تلك القبيلة، فما كان من العباس وهو الناقض فى تلك النقيضة إلا أن يتبع البناء نفسه فيهجو خُفَافًا نثراً وشعراً إلا أنه أوضح أنه لن ينال أبا خفاف أو أُمَّه ولن ينال إلا شخص خُفَاف، ثم يفخر العباس بسيادته ورئاسته وأيامه المعلومة عند بنى سليم والتى لا ينكرها أحد، ويلتزم العباس بالبحر العروضى نفسه وهو بحر البسيط وبحرف الروى نفسه وهو حرف السين إلا أنه خالف الحركة فجاء فى نقيضته بالسين المكسورة فى حين كانت فى نقيضة خفاف سين مضمومة، فالمخالفة وقعت فى حركة حرف الروى، ونلاحظ أن العباس قد لجأ إلى تضمين قصيدته (الناقضة) مادة جديدة فى نقائضه مع خفاف وهى الأيام وأقصد بها حروب قبيلته سليم وما كان له فيها من شواهد تحمل أدلة على شجاعته وإقدامه، ويستدعى العباس من ذاكرته تلك الأيام مذكرًا بها خفاف، والحق أن العباس لم يلجأ إلى الهجاء بقدر خفاف الذى كان مندفعًا فى هجائه وفخره، عكس العباس الذى يبدو هادئًا فى ردّه مفتخرًا دون تزيد متوعّدًا خفاف دون إسراف فى الوعيد وجاءت قصيدته (الناقضة) أطول من قصيدة خفاف (المنقوضة) مما يدل على تريثه فى إعداد الرد، الذى جاء مستحضرًا القصيدة الأولى، وقد أشرت -قبلاً- إلى تلك الحقيقة المتمثلة فى أنه لا يمكن قراءة القصيدة الأخرى بمعزلٍ عن استحضار القصيدة الأولى فهما مترابطتان، والأولى كانت مثيرًا ودافعًا لاستحضار الأخرى.

وقد أحسن العباس فى نقضه لما جاء فى قصيدة خفاف وقد صنع مثل ما قال د. إحسان النص «إن المبدأ الذى يقوم عليه فن المناقضة هو تتبع الشاعر معانى خصمه ونقْضها وتفنيدها؛ فإذا رمى الأول قبيلة الثانى بنقيصةٍ عمد الناقض إلى التبرؤ منها ومن وصمتها وألصقها بقبيلة خصمه»[٣٥].

– النقيضة الرابعة:

ويستمر صاحب الأغانى فى روايته فيقول: وسَعَى أهلُ الفساد إلى خُفَاف فقالوا: إنّ عَبَّاساً قد فضحك؛ فقال خُفَاف:

١– أَلاَ أَيُّهـا* الْمُهْـدِي لـىَ الشَّـتْمَ ظَالِمـاً ... ولَسْـتُ بأَهْـلٍ حِـينَ أُذْكَـرُ لِلشَّـتْمِ
٢– أبَـى الشَّـتْمُ أَنِّـى سَـيِّدٌ وابْـنُ سَـادةٍ ... مَطَـاعِينَ فـى الْهَيْجَـا مَطَـاعِيمَ للْخُـزْمِ**
٣–هُـمُ مَنَحُـوا نَصْـرًا أَبـاكَ وطـاعنوا ... وذَاكَ الّـذي يُرْمَـى ذَلِـيلاً ولا يَرْمِـي
٤–كَمُسْـتَلْحِمٍ فـى ظُلْمَـةِ الليـل مَخْرمًـا ... رَأَى المـوتَ صِـرْفاً والسُّـدُولُ بِهَـا تُغْمِي
٥– أَدبُّ عَلَـى أَنْمـاطِ بَيْضَـاءَ حُـرَّةٍ ... مُقَابلَـة الجَـدَّيْن مَاجِـدَةِ العَـمِّ
٦– وَأَنْـتَ لِحَنْفَـاءِ اليـدين لَـوْ أَنَّهـا ... تُبـاعُ لمـا جَـاءَتْ بزَنْـدٍ ولا سَـهْمِ
٧– وإنِّـى عَلَـى مـا كَـانَ أَوَّلُ أَوَّلٍ ... عَلَيْـهِ كَـذَاكَ القَـرْمُ يُنـتَجُ للقَـرْمِ
٨– وَأُكْـرِمُ نَفْسِـي عَـنْ أُمـورٍ دَنِيئَـةٍ ... أَصُـونُ بِهـا عِرْضِـي وآسُـو بهـا كَلْمِـى
٩– وأَصْـفَحُ عَمَّـن لـو أَشَـاءُ جُزَيْتُـهُ ... فَيَمْنَعُنـي رُشْـدِي وَيُـدْرِكُني حِلْمِـي
١٠– وَأَغْفِـرُ للمَـوْلَى وإنْ ذُو عَظِيمـةٍ ... عَلَـى البَغْـي مِنْهَـا لا يَضِـيقُ بهـا حَزْمِـي
١١– فَهِـذِي فَعَـالِي مَـا بقِيـتُ وإنّنِـي ... لَمُـوصٍ بِهـا عَقْبِـى إِذَا كُنْـتُ فـى رَجْمِـي

فقال له قومه: لو كان أَوَّلُ قَوْلَكَ كآخره يا خُفَاف لأطفأْتَ النَّائرة، وأذهبت سَخَائم النمائم.

فقال العباس مجيبًا له:

١–أَلاَ أَيُّهـا الْمُهْـدِي لِـىَ الشَّـتْمَ ظَالِمـاً ... تَبـيَّنْ إِذَا رَامَيْـتَ هَضْـبَةَ مَـنْ تَرْمِـي
٢–أَبَـى الـذُّمَّ عِرْضِـي إنَّ عِرْضِـىَ طَـاهِرٌ ... وَإِنِّـى أبـيٌّ مِـنْ أُبَـاةٍ ذَوي عَشْـمِ
٣– وَإنّـى مِـنَ القَـوْمِ الّـذينَ دِمـاؤُهُمْ ... شِـفَاءٌ لطُـلاَّبِ التِّـرَاثِ مـن الـرَّغْمِ[٣٦]

يقول خفاف إن من أهداه الشتم قد ظلمه لأنه ليس أهلاً للشتم فهو فارس فى الحرب سيفه بتّارٌ كما أنه ذو حسب ونسب وهو سيد قومه، وهو يُكرم نفسه بالترفع عن الدنايا ويحفظ نفسه منها، فيصون عرضه ويداوى جرحه ويصفح عمن يشاء ويجزى من يشاء، والمتحكم فى ذلك كله عقله ورشده وهو يغفر للصديق وإن أتى شيئاً عظيماً، فهذه كانت صفاته وأفعاله طيلة حياته فهو يوصى بها ولده وولد ولده الباقين من بعد مماته.

ويجيبه العباس فى قصيدته (الناقضة) مفتخرًا بنفسه وطيب أصله وأنه ينتمى إلى قوم أصحاب مجدٍ وسيادة وحسب معتمدًا فى ذلك على استخدام الأسلوب الخبرى المؤكد بإنَّ ثلاث مرات فى أبياته الثلاث ويلتزم العباس فى رَدّه على خفاف البحر العروضى نفسه الذى استخدمه خفاف وهو بحر الطويل وكذلك حرف الروى نفسه وهو الميم المكسورة.

ويمكن لنا أن نتبين من تلك النقيضة وما رواه صاحب الأغانى أمرًا مهمًا وهو بالغ الأثر فى فهم استمرارية النقائض بين خفاف والعباس وذلك من تعليق قوم خفاف على قصيدته وهو أنه إذا ما كان على هذه الحال من العقل والهدوء والصفح عن الآخر لما اشتعلت تلك الحروب الكلامية الهجائية بينه وبين العباس ولما وجد الواشون والنمَّامون شيئًا ليقوموا بنقله والوقيعة بينه وبين العباس، وهذا يجعلنى أذهب إلى أن الواشين من قبيلة بنى سليم هم من كانوا يسعون إلى إشعال نار الكراهية والضغينة بين الشاعرين، كما أننا نستشعر فى أبيات خفاف فى تلك القصيدة نَفْسًا هادئة أكثر عقلاً وأكثر حكمة من أبياته فى نقائضه الأخرى، وهذا يفسر لنا أن العباس لم يُطل فى ردّه إذ جاء قصيرًا فى ثلاثة أبيات فقط مكتفيًا فيه بالفخر ولم يحمل وعيدًا ولا تهديدًا ولا هجاءًا رغبة منه فى الصلح واستقرار الأحوال، وهذا ما يؤكده صاحب الأغانى فى بدء حديثه عن النقيضة التالية.

– النقيضة الخامسة:

يقول الأصبهانى: «وكان العبّاسُ وخُفَافُ قد همّا بالصلح، وكَرهت بنو سليم الحرب، فجاء غَوِيٌّ من رهط العباس فقال للعبّاس إنّ خُفافاً قد أَنْحى عَلَيك وعلى والديْكَ، فغضب العبّاس ثُمّ قَال قَدْ والله هَجَانى فَكَان أعْظَمُ مَا عَابنى بِه أَصْغَر عَيْبٍ فيه، ثم هجا وَالدىَّ فما ضَرَّهمَا ولا نَفَعه، ثم بَرزْتُ لَه فأَخْفَى شَخْصَهُ واتَّقانى بغيره، ولو شِئْتُ لشَتمْتُ أَباه وثلبْتُ

عِرْضَه، ولكنّى وإيَّاهُ كَما قال شِبَامُ بن زُبَيد لابن عَمٍّ له يقال له ثَرْوان بن مُرَّة، وكان أشبه الناس بخُفاف.

وَهَبْتُ لِثَرْوانَ بنَ مُرَّةَ نَفْسَهُ وقَدْ أَمكَنتْنِى من ذُؤَابتهِ يَدِي
وَأَجْمَلُ مَا فى اليَومِ من سُوءِ رَأْيِهِ رَجاءَ الّذي يَأْتى به اللهُ فى غَدِ
ولَسْتُ عَليهِ فى السَّفَاهِ كنَفْسِهِ ولَسْتُ إذا لم أَهْجُهُ بِمُوعِّد

ثُم قال العبَّاس:

١- أَرَانـــي كُلَّمَـــا قَارَبْـــتُ قَـــوْمي نَـــأَوْا عَنِّـــى وقَطْعُهـــمُ شَـــديدُ
٢-سَـئِمْتُ عِتَـابَهُمْ فَصَـفحْتُ عَـنْهُمْ وَقُلْـــتُ لَعَـــلَّ حِلْمَهُـــمُ يَعُـــودُ
٣- وَعَـــلَّ اللهَ يُمْكِـــنُ مِـــنْ خُفَـــافٍ فَأَسْـــقِيَهُ الّتِـــي عَنْهـــا يَحيـــدُ
٤- بِمَـا اكْتَسَـبَتْ يَـدَاهُ وجَـرَّ فِينَـا مـن الشَّـحْنَا التـي لَيْسَـتْ تَبِيـدُ
٥- وأَنَّـى لـى بِـوُدِّ بَنِـي خُفَـافٍ وعَـوْفُ والقُلُـوبُ لهـا وقُـودُ
٦- فَـــإِنِّي لا أَزالُ أُرِيـــدُ خَيْـــرًا وعِنْـــدَ اللهِ مـــن نِعَـــمٍ مَزِيـــدُ
٧- فَضَـاقَتْ بـى صُـدُورُهُمْ وَغَصَّـتْ حُلُـوقٌ مـا يَـبِضُّ لهَـا وَرِيـدُ
٨- مَتَـــى أَبْعُـــدُ فَشَـــرُّهُمُ قَرِيـــبٌ وَإِنْ أَقْـــرُبْ فـــوُدُّهُم بَعِيـــدُ
٩- أَقُـولُ لَهُـم وَقَـدْ لَهِجُـوا بِشَـتْمي تَرَقَّـوْا يـا بَنـى عَـوْفٍ وزِيـدُوا
١٠- فَمَـا شَـتْمِي بِنَـافعٍ حَـىِّ عَـوْفٍ ولا مِثْلِـــي بِضَـــائرِهِ الوَعِيـــدُ
١١- فَمَـا أَدْرِي ومَـا تَدْرِيـهِ عَـوْفٌ أَيَنْفَعُنـــي الهُبـــوطُ أَم الصُّـــعُودُ
١٢- أَتَجْعلُنـــي سَـــرَاةُ بَنـــي سُـــلَيْمٍ كَكَلْـــبٍ لا يَهِـــرُّ ولا يَصِـــيدُ
١٣- كَـأَنِّى لَـمْ أَقُـدْ خَـيْلاً عِتَاقًـا شَـوازِبَ مِثلُهـا فـى الأَرْضِ قُـودُ
١٤- أُجَشِّـــمُها مَهامِـــهَ طَامِسَـــاتٍ كَـــأَنَّ رِمَـــالَ صَحْصَـــحِهَا قُعُـــودُ
١٥- عَلَيْهـا مـن سَـرَاةِ بَنـي سُـلَيْمٍ فَـوارِسُ نَجْـدةٍ فـى الحَـرْبِ صِـيْدُ
١٦- فَـأُوطِئُ مَـنْ تُرِيـدُ بَنـي سُـلَيْمٍ بِكَلْكَلِهـا ومَـنْ لَيْسَـتْ تُرِيـدُ

فَلمَّا بَلَغ خُفَافاً قَوْلُ العبّاس، قال: واللهِ ما عِبتُ العبَّاسَ إلاّ بما فيه، وإنّى لسَلِيمُ العُودِ، صَحِيحُ الأَدِيم، ولَقد أَدْنَيتُ سَوادِي من سَواده فلم أُخْجِم ولا نَكَصْتُ عنه، وإنّى وإيَاهُ كَمَا قَال ثَروان لشِبَام بن زُبيد، وكان يلقى منه ما لقى من العبّاس قال:

رَأَيْتُ شِبَاماً لايَزَالُ يَعِيبُنِي ... فَللّهِ مَا بَالي وَبالُ شِبَامِ
فَقَصْرُكَ مِنّى ضَرْبةٌ مَازنيّةٌ ... بِكَفّ امْرِئٍ فى الحَرْبِ غَيرِ كَهَامِ
مِن اليَوْم أَوْ مِنْ شَيْعِه بِمُهَنَّدٍ ... خَصُومٍ لِهَامَاتِ الرِّجَالِ حُسَامِ
فَتُقْصِرُ عَنِّي يَا شِبَامُ بنَ مَالِكٍ ... وَمَا عَضَّ سَيْفي شَاتِمي بحِرَامِ

وقال خفاف:

١- أَرَى العبَّاسَ يَنْقُصُ كُلَّ يَوْمٍ ... وَيَزْعُمُ أَنَّه جَهْلاً يَزِيدُ
٢- فَلَو نُقِضَتْ عَزَائِمُهُ وبَاءَتْ ... سَلاَمَتُهُ لَكَانَ كَمَا يُرِيدُ
٣- وَلَكِنَّ المعَايبَ أَفْسَدَتْهُ ... وَخُلْقٌ فى عَشِيرتِهِ زَهِيدُ
٤- فَعَبّاسُ بنُ مِرْدَاسِ بنِ عَمْروٍ ... وَكِذْبُ المرْءِ أَقْبَحُ مَا يُفِيدُ
٥- حَلَفْتُ بِرَبِّ مَكَّةَ والْمُصَلَّى ... وَأَشْيَاخٍ مُحَلِّقَةٍ تَهُودُ
٦- بأَنَّكَ مِنْ مَوَدّتِنَا قَرِيبٌ ... وَأَنْتَ مِن الّذِي تَهْوَى بَعِيد
٧- فَأَبْشِرْ إنْ بَقِيتَ بِيَوْمِ سُوءٍ ... يَشِيبُ لَهُ مِن الخَوْفِ الوَلِيدُ
٨-كَيَوْمِكَ إذْ خَرجْتَ تَفُوتُ رَكْضًا ... وَطَارَ القَلْبُ وانْتَفَخُ الوَرِيدُ
٩- فَدَعْ قَوْلَ السَّفَاهَةِ لا تَقُلْهُ ... فَقَدْ طَالَ التَّهدُّدُ والوَعِيدُ
١٠- رَأَيْنَا مَنْ نُحَارِبُهُ شَقِيًا ... ومَنْ ذَا يا بَني عَوْفٍ سَعِيدُ(٣٧)

يبدأ العباس فى تلك النقيضة فيجمع فى مناقضته بين النثر والشعر، فيبدأ نثرًا مبديًا سخطه وغضبه من خفاف لأنه ذكر والدىّ العباس محذرًا إياه من ذلك مترفعًا عن شتم والدىّ خفاف والإساءة له فى عرضه ونسبه ثم يبدأ قصيدته (المنقوضة) مبديًا حزنه الشديد من خفاف ومن قومه وعشيرته إذ إنه دائمًا ما يحاول التقرب إليهم والتودد لهم متمنيًا أن يبادلوه وُدًّا بود ولكن هيهات أن يحدث ذلك، إذ إنهم حريصون على الإساءة إليه، ويصل غضبه إلى

ذروته فيجعل خفافًا مثل الكلب الذى لا فائدة منه على الإطلاق مفتخرًا فى الوقت ذاته بفروسيته وشجاعته وإقدامه فى الحروب والجميع يشهد بذلك ويقرّ له بالسيادة.

وتشهد هذه القصيدة للمرة الأولى فى نقائض العباس أنه يجمع بين الهجاء والفخر بل وجاء هجاؤه قاسيًا شديدًا، وهذا يشعرنا بمدى غضبه وسخطه، وذلك لأنه قد أظهر كثيرًا من ضروب الحلم والصبر على ما يأتى به خفاف من هجاء فى نقائضه السابقة.

ثم نجد خفافًا يجيب العباس نثرًا بنثر وشعرًا بشعر، فيبدأ فى نثره بنقض ما قاله العباس مفتخرًا بقوته وشجاعته وبسالته وعدم إحجامه عن ملاقاة العباس، بل إنه أدنى جسمه من جسم العباس فى تحدٍّ واضح منكرًا على العباس ما ادعاه من جبن خفاف وهروبه من ملاقاته، ثم يجيبه شعرًا موضحًا أن كل يوم يَمُرّ على العباس يزيده جهلاً ونقصًا، وذلك لأنه يكذب ويدّعى وهذا أقبح ما يمكن أن يرتكبه الرجل، مبديًا أن للعباس مودَّةً وقُربًا ولكنه هو الذى يختار البعد والهجر محذرًا إياه من سوء العاقبة إذا ظل يهدد ويتوعد؛ فهو ليس بأهل لمحاربة خفاف وقومه، وجاء رد خفاف هادئًا جيدًا وأجاد الردّ على العباس ناقضًا ما جاء فى قصيدته من معانٍ.

وقد التزم خفاف البحر العروضى للقصيدة المنقوضة فصاغ قصيدته (الناقضة) فى بحر الوافر ملتزمًا حروف الروى وهو الدال المضمومة، وجاءت قصيدة العباس أكثر طولاً من قصيدة خفاف لاختلاف الدافع والباعث النفسى، حيث كان هناك شعور متزايد بالسخط الشديد والغضب من القول الذى قيل للعباس عن أن خفافًا قد ذكره ووالديه بسوء، فجاء الشعر كوسيلة من وسائل التعبير أو لنقل التنفيس عن ذلك الشعور بالغضب والسخط الشديدين.

ونلاحظ فى تلك النقيضة أن كلا الشاعرين قد استعان بشعر لغيره، مستشهديْن به على صحة موقفيهما، وهذا جديد فى نقائضهما نشهده للمرة الأولى، حيث لا يترك أَىُّ من الشاعرين أية وسيلة يلتمس بها الانتصار على خصمه إلا ولجأ إليها وقام بتوظيفها خدمةً لهذا الهدف، كما نلاحظ أيضًا ما أثار العباس ودفعه إلى هجاء خفاف وأقصد به هذا الغلام الذى ذهب إليه وأوغر صدره ودفعه إلى تلك النقيضة.

– النقيضة السادسة:

يقول خُفَافُ:

١– أَعَبَّـــاسُ إِنَّـــا وَمَـــا بَيْنَنَـــا ... كَصَـــدْعِ الزُّجَاجـــةِ لا يُجْبَـــرُ
٢– فَلَسْـــتَ بِكُـــفْءٍ لأَعْراضِـــنَا ... وأَنْـــتَ بِشَـــتْمكَنَا أَجْـــدَرُ
٣– وَلَسْـــنَا بأَهْـــلٍ لمَـــا قُلْـــتُمُ ... وَنَحْـــنُ بِشَـــتْمكمُ أَعْـــذَرُ
٤– أَراكَ بَصِـــيرًا بِتِلْـــكَ الَّتِـــي ... تُرِيـــدُ وعَـــنْ غَيْرِهـــا أَعْـــوَرُ
٥– فَقَصْـــرُكَ منِّـــى رَقِيـــقُ الـــذُّبا ... بِ عَضْـــبٌ كَرِيهتُـــهُ مِبْتَـــرُ
٦– وأَزْرَقُ فـــى رَأْسِ خَطِّيَّـــةٍ ... إِذَا هُـــزَّ أَكْعُبُهـــا تَخْطِـــرُ
٧– يَلُـــوحُ السِّـــنانُ عَلَـــى مَتْنِهَـــا ... كَنَـــارٍ عَلَـــى مَرْقَـــبٍ تُسْـــعَرُ
٨– وَزَعْـــفٌ دِلاَصٌ كَمَـــاءِ الغَـــدير ... تَوَارثَـــهُ قَبْلَـــه حِمْيَـــرُ
٩– فَتِلْـــكَ وَجَـــرْدَاءُ خَيْفَانَـــةٌ ... إِذَا زُجِـــرَ الخَيْـــلُ لاَ تَزْجَـــرُ
١٠– إِذَا أَلْقَـــتِ الخيْـــلُ أَوْلاَدَهَـــا ... فَأَنْـــتَ عَلَـــى جَرْيِهـــا أَقْـــدَرُ
١١– مَتَـــى يَبْلُـــلِ المـــاءُ أَعْطَافَهَـــا ... تَبُـــذُّ الجيَـــادَ وَمَـــا تُبْهَـــرُ
١٢– أَنَهْنِـــهُ بالسَّـــوْطِ مِـــنْ غَرْبِهـــا ... وَأُقْـــدِمُها حَيْـــثُ لاَ يُنْكَـــرُ
١٣– وَأَرْحَضُـــها غَيْـــرَ مَذْمُومَـــةٍ ... بِلَبّاتِهَـــا العَلَـــقُ الأَحْمَـــرُ
١٤– أَقُـــولُ وَقَـــدْ شُـــكَّ أَقْرابُهـــا ... غَـــدَرْتُ ومِثْلِـــىَ لاَ يَغْـــدِرُ
١٥– وَأُشْـــهِدُهَا غَمَـــراتِ الحُـــروبِ ... فَسِـــيَّان تَسْـــلَمُ أو تُعْقَـــرُ

فقال العبَّاسُ مُجِيبًا:

١– خُفَـــافُ أَلَـــم تَـــرَ مَـــا بَيْنَنَـــا ... يَزِيـــدُ اسْـــتِعَاراً إِذَا يُسْـــعَرُ
٢– أَلَـــمْ تَـــرَ أَنَّـــا وَهَبْنَـــا الـــتِلاَ ... دَ للسَّـــائِلينَ وَمَـــا نَغْـــدِرُ
٣– لأَنَّـــا نُكَلَّـــفُ فَـــوْقَ الّتـــي ... يُكَلَّفُهـــا النَّـــاسُ لَـــو تَخْبُـــرُ
٤– لَنَـــا شِـــيمٌ غَيـــرُ مَجْهُولَـــةٍ ... تَوارَثَهـــا الأَكْبَـــرُ الأَكْبَـــرُ
٥– وَخَيْـــلٌ تَكَـــدَّسُ بالدَّارِعيـــ ... ـــن تُنْحَـــرُ فـــى الـــرُّوْعِ أَوْ تُعْقَـــرُ
٦– عَلَيْهَـــا فَـــوَارِسُ مَخْبُـــورَةٌ ... كَجِـــنٍّ مَسَـــاكِنُها عَبْقَـــرُ

٧- وَرَجْرَاجَـــةٌ مِثْـــلُ لَـــوْنِ النُّجُـــو ... مِ لا العُـــزْلُ فِيهَـــا ولا الحُسَّـــرُ
٨- وَبِـــيضٌ سَـــوَابِغُ مَسْـــرُودَةٌ ... مَواريـــثُ مَـــا أَوْرَثَـــتْ حِمْيَـــرُ
٩- فَقَـدْ يَعْلَـمُ الحـيُّ عِنْـدَ الصِّـياحِ ... بَـــأَنَّ العَقِيلَـــةَ بـــى تُسْـــتَرُ
١٠- وَقَـدْ يَعْلَـمُ الحَـيُّ عِنْـدَ الرِّهـا ... نِ أَنّـــي أَنَـــا الشَّـــامِخُ الْمُخْطِـــرُ
١١- وقَـدْ يَعْلَـمُ الحَـيُّ عِنْـدَ السُّـؤا ... لِ أَنِّـــى أَجُـــودُ وأُسْـــتَمْطَرُ
١٢- فَـــأنَّى تُعيِّرُنـــى بالفَخَـــارِ ... فَهَـــا أَنَـــا هَـــذَا هُـــوَ الْمُنْكَـــرُ[٣٨]

يبدأ خفاف فى تلك النقيضة؛ فيكون هو صاحب المنقوضة معتمدًا فيها على الفخر موضحًا للعباس أن ما حدث بينهما من شقاق هو صدع كبير لا يمكن جبره أو معالجته وأن لخفاف وقومه كل العذر إذا ما قاموا بسبّ العباس وقومه لأنه لم يترك لهم عذرًا يلتمسونه له، ثم يحذره خفاف ويتوعده بفرسان أقوياء أشداء بأيديهم سيوف قاطعة حاسمة ورماحٌ زرق السنان لا تخطئ أهدافها ويرتدون دروعًا محكمة براقة توارثوها عن حمير بن سبأ ويمتطون خيلاً سريعة قوية وتتميز بصفات البسالة والإقدام ولا تهاب الموت كأصحابه الذين يحاربون معه.

ومن الواضح اعتماد خفاف على الفخر بنفسه وعشيرته وهو لم يلجأ إلى الهجاء فى قصيدته تلك، ثم يرد عليه العباس مستخدمًا طريق الموازاة أو المقابلة وهي من طرق المناقضة التي ذكرها الأستاذ أحمد الشايب بقوله «وهذه أن يضع الثاني من المفاخر أو المثالب ضروبًا تقابل ما وضع الأول وتكون مناظرة لها»[٣٩]، فنجد أن العباس يبدأ موضحًا لخفاف مستعيرًا أسلوبه الإنشائى المتمثل فى النداء لاستحضار المهجو أو المخاطب فى بداية قصيدته (الناقضة) معتمدًا على الفخر بالكرم والجود والشجاعة، ثم يلجأ العباس إلى طريقة خفاف التى سلكها فى قصيدته الأولى فقام بوصف الخيل التى يمتطيها هؤلاء الفرسان من عشيرته وهم يلبسون الدروع ويسرعون بخيولهم وكأنهم جن من وادى عبقر ومعهم سيوفهم التى ورثوها عن أجدادهم وجدهم الأكبر حمير، ثم ينهى العباس قصيدته بالفخر الفردى فيعيد ما يتميز به من كرم وشجاعة وإقدام وهذا هو مناط التفاخر الحقيقى، ويحرص على التكرار المعنوى للتأكيد على تميزه بتلك المعانى.

وقد التزم العباس البحر العروضى الذى اختاره خفاف، فجاءت قصيدته الناقضة فى بحر المتقارب وكذلك التزم حرف الروى وهو الراء المضمومة، ويبدو لنا واضحًا لجوء العباس إلى استخدام بعض ألفاظ خفاف وأساليبه التى استخدمها فى قصيدته الأولى (المنقوضة) مما يجعل التكرار ظاهرة لغوية بارزة تمامًا فى النقائض.

– النقيضة السابعة:

يقول العبَّاسُ:

١– فَـأَبْلِغْ لَـدَيْكَ بَنـي مَالِـكٍ ... فَـأَنْتُمْ بِأَنْبائِنَـا أَخْبَـرُ
٢– فَأَمَّـا النَخِيـلُ فَلَيسَـتْ لَنَـا ... نَخِيـلٌ تُسْـقَى وَلاَ تَـؤْبَرُ
٣– وَلَكِـنَّ جَمْعـاً كَجَـذْلِ الحِكَـا ... كِ فِيـهِ الْمُقنَّـعُ والحُسَّـرُ
٤– مَغَـاوِيرُ تَحْمِـلُ أَبْطَالَنَـا ... إِلَـى الْمَـوْتِ سَـاهِمةٌ ضُـمَّرُ
٥– وَأعـدَدْتُ للحَـرْبِ خَيْفَانَـةً ... تُـديمُ الجِـرَاءَ إِذَا تَخْطَـرُ
٦– صَـنِيعًا كَقَـارُورَةِ الزَّعْفَـرا ... نِ مِمّـا تُصَـانُ ولا تُـؤْثرُ
٧– إِذَا شَـاءَ أَرْبَابُهـا لَـمْ يَـزَلْ ... خِضَـابُ بِلَبَّتِهَـا أَحْمَـرُ
٨– يُصَـادُ اعْتِباطـاً عَلَيهـا الظَّلِيـ ... ـمُ فـى القَطْـرِ والفَـرَأُ الأَقْمَـرُ[٤٠]

فيجيبه خُفَافٌ بقوله:

١– أَعَبَّـاسُ إنّ اسْـتَعارَ القَصِيـ ... ـدِ فـى غَيْـرِ مَعْشَـرِه مُنْكَـرُ
٢– عَـلاَمَ تَنَـاوَلُ مَـا لا تَنَـالُ ... فَتَقْطَـعُ نَفْسَـكَ أَوْ تَخْسَـرُ
٣– فَـإِنَّ الرِّهـانَ إِذَا مَـا أُرِيـدَ ... فَصَـاحِبُهُ الشَّـامِخُ الْمُخْطِـرُ
٤– تَخَـاوَصُ لَـم تَسْـتَطِعْ عُـدَّةً ... كَأَنَّـكَ مِـنْ بُغْضِـنَا أَعْـوَرُ
٥– فَقَصْـرُكَ مَـأْثُورةٌ إِنْ بَقِيْـ ... ـتُ أَصْـحُو بهـا لَـكَ أَوْ أَسْـكرُ
٦– لِسَـاني وسَـيْفي مَعًـا فَـانْظُرَنْ ... إِلَـى تِلْـكَ أَيُّهُمَـا تُبْـدَرُ[٤١]

وهكذا يبدأ العباس مفتخرًا بقدرته الحربية، ففرسه السريعة قد أعدّها للحرب وهى مصبوغة الشعر من كثرة ما يلحقها من دم الأعداء، وهو يعدو مع فرسان عشيرته لا يهابون

الموت بل يسارعون إليه، وقد اعتمد العبّاس فى قصيدته (المنقوضة) على الفخر فقط دون أن يلجأ إلى الهجاء وإن كان فخره بشجاعته يحمل قدرًا من التهديد والوعيد لخفاف وعشيرته.

ويردُّ عليه خفاف موضحًا بأن العبّاس هو الخاسر فى هذا المضمار لأنه قليل الحيلة وجهده يتضاءل أمام خصمه الذى سلاحه ليس السيف وحده ولكن لسانه الذى يهجوه به سلاح آخر، ونلاحظ أن خفافًا حريصٌ على الجمع بين الفخر والهجاء فى قصيدته (الناقضة) معتمدًا على أسلوب السخرية من العباس وكذلك على أسلوب التهديد والوعيد.

وتلك النقيضة أقرب إلى أن تكون جزءًا من النقيضة السابقة لاتفاق الوزن العروضى "المتقارب" واتفاق حرف الروى "الراء" وما جاء فيها من معانٍ وأفكار استكمالاً للنقيضة السابقة، والتزمت بما ورد فى ديوان الشاعرين من فصل بين القصيدتين.

– النقيضة الثامنة:

فقد كفّ العبَّاس وخُفَافُ حَتّى أَتى ابنُ عَمٍّ للعبَّاس يُكْنى: أبا عمرو بن بدر وكان غائباً فقال: يا عَبّاسُ ما نَقول فيك خَيراً إلاّ وهُو باطل، قال: وكيف ذلك؟ ويحك! قال: أَخْبِرْنى عَنْك؟ أكُلّ الذى أقررت به من خفاف فى نفيه أباك وتهجينه عرضك، لِيَأْسٍ من نَصْر قَوْمك، أو ضَعْفٍ فى نفسك؟ قَال: لاَ، ولا واحدة منها، ولكنّى أحببتُ البُقيا، قال: فاسمع ما قُلته، قال: هات فأنشأ يقول شعرًا يثير العبّاس، فما لبث بعده العبّاس إلاّ أن أعلن الحرب على خُفاف فاقتتلوا قتالاً شديداً يوماً إلى الليل وكان الفضل للعباس على خفاف، فتدخل الضَّحَاكُ ابن عبد الله السُّلَمي وهو صاحب أمر بنى سليم، وركب إليهم دُرَيْد بن الصِّمة ومالك بن عوف فى وجوه هوازن فقام دُرَيْدُ خطِيبًا فقال: يا معشر بنى سليم أنه أعجلنى إليكم صَدْرٌ وادٌ وَرأىٌ جَامِعٌ وقد ركب صاحباكم شَرَّ مَطيَّة، وأوضعا إلى أصعب غاية، فالآن قبل أن يَنْدمَ الغالب ويَذلَّ المغلوب، ثم جلس وقام مالك بن عوف خطيبًا محذرًا من شر الفتنة الواقعة وسوء عواقبها: كَمْ حَيٍّ عزيز الجار مخوف الصباح أولع بما أولعتم به، فأصبح ذليل الجار مأمون الصباح فانتهوا ولكم كف طويلة وقرن ناطح قبل أن تلقوا عدوكم بكفٍّ جذماء وقرن أعضب.

فندم العباس وقَال جَزى الله عنى خفافاً شَرًّا فقد كنت أخَفَّ بنى سليم من دمائها ظَهْرًا وأَخْمصها من أموالها بطنًا، فأصبحت العربُ تعيِّرني بما كنْتُ أعيب عليها من الاحتمال وأكل الأموال، وصرْتُ ثقيل الظهر من دمائها، منفضجُ البطن من أموالها، فلمّا أَمْسى تَغنَّى يَشْكُو ابن عمه خُفَاف قائلاً:

١- أَلَـمْ تَـرَ أَنّـي كَرِهْـتُ الحـرُوبَ ... وَأَنـي نَـدِمْتُ عَلَـى مَـا مَضَـى
٢- نَـدَامَةَ زارٍ عَلَـى نَفْسِـهِ ... لِتِـلْكَ الّتـي عَـارُها يُتَّقَـى
٣- وَأَيْقَنْـتُ أَنِّـي لِمـا جِئْتُـهُ ... مِـن الأَمْـرِ لاَبِـسُ ثَـوْبَىْ خَـزَى
٤- حَيَـاءً ومِثْـلي حَقِيـقٌ بـهِ ... وَلَـم يَـلْبسِ القَـومُ مِثْـلَ الحَيَـا
٥- وَكَانَـتْ سُـلَيْمُ إِذَا قَـدَّمَتْ ... فَـتىً للحَـوادِثِ كُنْـتُ الفَتَـى
٦- وَكُنْـتُ أَفِـيءُ عَلَيهـا النِّهَـابَ ... وَأَنْكِـى عِـدَاها وَأَحْمِـي الحِمَـى
٧- فَلَـمْ أُوقِـدِ الحـرْبَ حَتَّـى رَمَـى ... خُفَـافٌ بِأَسْـهُمِهِ مِـنْ رَمَـى
٨- فَأَلْهـبَ حَـرْبًا بأَصْـبَارِهَا ... فَلـم أَكُ فِيهَـا ضَـعِيفَ القُـوَى
٩- فـإِنْ تَعْطِـفِ القَـوْمَ أَحْلاَمُهُـمْ ... وَيَرْجِـعَ مِـنْ وُدِّهِـمْ مَـا نَـأَى
١٠- فَلَسْـتُ فَقِيـرًا إِلـى حَـرْبِهِمْ ... وَمَـا بِـى عـن سَـلْمِهِمْ مِـنْ غِنَـى[٤٢]

- فقال خفاف مجيبًا:

١- أَعَبَّـاسُ إِمَّـا كَرِهْـتَ الحُـروبَ ... فَقَـدْ ذُقْـتَ مِـنْ عَضِّـها مـا كَفَـى
٢- أَأَلْقَحْـتَ حَـرْبًا لهـا شِـدَّةٌ ... زَمَـاناً تُسَـعِّرُها بـاللَّظَى
٣- فَـلاَ تَرقَّيْـتَ فـى غَيِّهَا ... دَحَضْـتَ وَزَلَّ بِـكَ الْمُرْتَقَـى
٤- فَـلاَ زِلْـتَ تَـبْكِي عَلَـى زَلَّـةٍ ... ومَـاذَا يَـرُدُّ عَلَيـك البُكَـا
٥- فَـإِنْ كُنْـتَ أَخْطَـأْتَ فـى حَرْبِنـا ... فَلَسْنَـا نُقِيـلُكَ هَـذَا الخَطَـا
٦- وَإِنْ كُنْـتَ تَطْمَـعُ فـى سَـلْمِنَا ... فَـزَوالُ ثُبِيـرًا وزُكنـيْ حِـرَا[٤٣]

يتضح من الأبيات السابقة أن العباس أقر بندمه على ما اقترف فى حق ابن عمه وقبيلته، وقد أحسّ بأنه قد تورَّط فيما لا ينبغى أن يكون عليه، وقد جاء عدد الأبيات فى قصيدة العباس عشرة أبيات قدّم فيها اعتذاره وندمه وكراهيته لحرب أبناء عشيرته، وأنه يشعر

بخجل شديد وذلك لأنه كان فتى سليم الأول فى حربها وسلمها، مفتخرًا بشجاعته وفروسيته ورحمته وعدله ثم يمدَّ يده بالسلام إلى خفاف، راجيًا أن يقبل هذا السلم، فيجيبه خُفَافٌ ساخرًا مستهزئًا مما يدعيه العباس من ندمٍ، موضحًا له أنه أشعل حربًا لا طاقة له بها، فلماذا يبكى من عواقبها وهو من بدأها، ويرى خفاف أنه لا عذر للعباس فيما يدعي ولا سبيل إلى سلمه معه.

ونلاحظ التكرار المعنوى واللفظى فى قصيدة خفاف (الناقضة)، وقد اعتمد خفاف على طريقة التكذيب وكذلك الوعيد والشماتة وهما من ضروب المناقضة التى أوردها الأستاذ أحمد الشايب، وتبدو شماتة خفاف واضحة وهذا أمر غير مقبول بعد أن أظهر العباس رغبة قد تكون حقيقية صادقة فى السلم والابتعاد عن تلك المهاجاة والتى ترتب عليها حرب بين الأهل من أبناء القبيلة الواحدة، ومن الواضح أيضًا التزام خفاف بالبحر العروضى الذى اختاره العباس لقصيدته وهو بحر المتقارب وكذلك التزم حرف الروى نفسه وهو الألف اللينة.

– النقيضة التاسعة:

يقول خفاف:

١– أَعبّاسُ بنُ مِرْدَاسٍ أَلمّا ... تُخبِّرك المجَامِعُ عَنْ خُفَافِ

٢– فَتَعْلَمَ أنَّ عُودِي قَدْ تَعيَّا ... عَلَى غَمْزِ المقوِّمِ والثِّقَافِ

٣– سَتَأْتِيكَ القوافي مِنْ قَرِيضي ... مُلَمْلَمَةً كَجُلْمُودِ القِذَافِ

٤– وَتَشْرَبُ من لَظَى حَرْبي كُؤوسًا ... أَمرَّ بِفيكَ مِنْ سُمٍّ ذُعَافِ[٤٤]

ويمكن إضافة بيت خامس أورده محقق الديوان منفرداً وأرى أنه متمم للأبيات السابقة وهو قول خفاف:

وَإنَّ قَصِيدةً شَنْعَاءَ مِنّيإِذَا حَضَرَتْ كَثالِثةِ الأَثَافي[٤٥]

ويجيبه العبَّاسُ بقوله:

١– أَلاَ مَنْ مُبْلِغُ عَنّي خُفَافًا ... فَإنِّي لاَ أُحَاشِي مِنْ خُفَافِ

٢– أَتُهْدِي لي الوَعِيدَ على التَّنَائي ... وَمَا مِثْلِي يُخوّف بالقَوافِي

٣–نَكَحْتَ وَلِيدةً ورَضِعْتَ أُخْرَى ... وَكَانَ أَبُوكَ تَحْمِلُهُ قَطَافِ

٤- فَلَسْتُ لحَاصِنٍ إنْ لَم تَرَوْهَا تُثِيرُ النّقْعَ مِنْ ظَهْرِ النَّعَافِ
٥- سَوَاهِمَ كَالقِدَاحِ مُسَوَّمَاتٍ وَكُمْتاً لَوْنُهَا كَالوَرْسِ صَافِ
٦- فَسَائِلْ فِي قَبائِلِ جَذْمِ قَيْسٍ بِنَا عِنْدَ العَظَائِمِ والجُحَافِ
٧- تُخبَّرُ أَنَّنَا أَوْلَى بِمَجْدٍ تَوارَثَهُ طِرَافٌ عَنْ طِرَافِ
٨-وَأَنْدَى عِنْدَ جَدْبِ النَّاسِ رَاحَا وَأَنْفَعُ للأَرامِلِ والضِّعَافِ
٩- هَزَمْنَا إِذْ لَقِيْنَا جَيْشَ رِعْلٍ وَذَكْوانًا وجَمْعَ بَنِي خُفَافِ
١٠- وَمَا أَنْ طِبُّهُمْ جُبْنٌ وَلَكِنْ رَمَيْنَاهُمْ بِثَالِثَةِ الأَثَافِي[٤٦]

ذكرت فى النقيضة الثامنة أن العبَّاسَ وخفافًا قد احتربا واقتتلا ثم تصالحا بعد أن تدخل دريد بن الصمة ومالك بن عوف، «وقد قال لهما دريد فى نهاية وساطته للصلح بينهما: يا هؤلاء، إنَّ أَوَّلَكم كان خيرَ أَوَّل، وكُلُّ حَى سَلَف خيرَ من الخلف، فكفُّوا صاحبيكم عن لَجَاج الحرب، وتهاجى الشعر، فاستحيا العبَّاس، فقال: فإنّا نَكُفُّ عن الحرب ونتهادى الشِّعر، فقال دريد: فإنْ كُنتما لابُد فاعِلَيْن فاذْكُرا ما شِئْتُما ودَعا الشَّتْم؛ فإنَّ الشَّتْم طريق الحرب، فانصرفا على ذلك»[٤٧].

وأعتقد أن تلك النقيضة جاءت بعد هذا الاتفاق الذى شهده حكيم العرب دريد بن الصمة، فبدأ خفاف قصيدته (المنقوضة) موجهًا حديثه إلى العباس مستحضرًا إياه بأسلوب النداء مفتخرًا بما له من قوة وشدّة أعيت كل من أراده بسوء مهددًا متوعدًا العباس بأنه ستأتيه أشعاره التى لن يستطيع العباس تحملها، وأن تلك القصائد ستصيبه حيث يشاء، وإذا ما فكر فى حرب خفاف فستكون أشد عليه وقعًا من تناول السم السريع الهلاك، ويجيبه العباس بقصيدة (ناقضة) يعبر فيها عن سخريته من وعيد خفاف وتهديده مؤكدًا أنه لا يخشى مثل هذا التهديد، ناقضًا ما جاء فى قصيدة خفاف من معانى الوعيد والتهديد، مذكرًا إياه بأيامه فى قبيلته سليم وما تشهد له تلك الأيام من فروسية وشجاعة ممتطيًا الخيل المعروفة بألوانها المتعددة وسرعتها الشديدة، متحديًا خفافًا أن يسأل عن العباس وعشيرته فسيجد الجواب الشافي المتمثل فى أنهم أصحاب مجد تليد توارثوه كابرًا عن كابر وهم أصحاب جود وكرم وشجاعة وبأس شديد.

تتبع العباس معانى خفاف وقام بتوجيهها حيث أراد متخذًا منها أساسًا يبنى عليه فخره ووعيده، والملاحظ أن كلا الشاعرين ابتعدا عن الهجاء، فقد اعتمدا على الفخر الممتزج بالوعيد والتهديد.

وقد التزم العباس البحر العروضى لقصيدة خفاف وهو الوافر وكذلك التزم حرف الروى نفسه وهو الفاء المكسورة، وقد جاءت قصيدة العباس (الناقضة) ضعف عدد أبيات قصيدة خفاف (المنقوضة).

– النقيضة العاشرة:

وفى بيت مفرد أنشده ابن برى لخُفاف يقول فيه:

جُلْمُــودُ بِصْــرٍ إذا الْمِنْقَــارُ صَــادَفَهُ فَـلَّ الْمُشَـرْجَعُ مِنْهَـا كُلَّمـا يَقَـعُ[٤٨]

وهو بيت فى الفخر بالصلابة والبأس والشدة، فما يكون من العباس إلا الردّ ناقضاً ما جاء فى بيت خفاف، يقول العباس ناقضًا:

إنْ تَــكُ جُلْمُــودَ بَصَــرٍ لا أوَيِّسُــهُ أُوقِــدْ عليــه فأحميــهِ فَيَنْصــدعُ

السَّـلْمُ تأخُـذُ منهـا مـا رضـيتَ بـه والحربُ يكفيكَ من أنفاسها جُرَعُ[٤٩]

يبدو واضحاً حرص العباس على نقض المعنى الذى عبر عنه خفاف فى بيته الأول وهدم ما جاء فيه من فخر مستخدماً حرف الشك والشرط "إنْ" مبدياً سخريته من ادعاء خفاف تلك الصلابة والشدة، وهو إن أقرّ العباس بوجودها فإن علاجها يعلمه تماماً وهو أن يوقد عليه حتى يتفتت وينكسر، كما أن السلم إن طالت لا ينفعك طولها، والحرب يكفيك منها اليسير لأنك لن تتحمل منها إلا جرعات قليلة، وقد أجاد العباس فى تتبعه المعنى ونقضه وهدمه وهذا هو الهدف الأساسى من النقائض، وقد التزم العباس فصاغ بيتيه فى بحر البسيط وحرف الروى العين المضمومة، وهذا ما اختاره خفاف لصياغة بيته الأول الذى يمثل هنا (المنقوضة).

وعلى هذا النحو تأتى نقائض خفاف والعباس، وهى نقائض تمثل بداية وتطورًا متكاملاً لهذا الفن الشعرى الذى استوى عوده وأينع وأنتج أفضل ثماره فى العصر الأموى على يد

الفحول جرير والفرزدق والأخطل، ويجب أن نوضح أن نقائض خفاف والعباس تمثل حلقة مهمة وأساسية من حلقات فن النقائض الشعرى، وتتميز تلك النقائض أنها جرت أحداثها فى قبيلة واحدة ذات مكانة وهى قبيلة سليم إحدى قبائل قيس عيلان، وأنها اعتمدت فى بنائها على الفضائل والخصال الاجتماعية ولم يكن بها ابتذال أو إسفاف أو هجاء خارج لا تقبله العرب، وكما يقول الأستاذ الشايب «لم تَسفّ على كل حال، وكانت طرائقها القلب، والموازنة، والتكذيب، وغلب عليها الفخر وإن لم تخل من الهجاء»[٥٠]، ولعل كون الشاعرين ينتميان إلى قبيلة واحدة هو ما وجه النقائض هذا التوجيه الأخلاقى، والدليل على ذلك ما يقوله خفاف مخاطبًا العباس، يقول:

أَعبَّـــاسُ إنّ الَّـــذِي بَيْنَنَـــا ... أَبَـــى أن يُجَـــاوِزَهُ أَرْبَـــعُ
عَلائِـــقُ مِـــنْ حَسَـــبٍ داخِـــلٍ ... مَـــعَ الإِلِّ والنَسَـــبُ الأرفَـــعُ
وإِنَّ ثَنِيَّـــةَ رَأْسِ الهِجَـــا ... ءِ بَيْنِـــي وبَيْنِـــكَ لا تُطْلَـــعُ
وأَبْغِـــضْ إلَـــيَّ بِإِتْيَانِهَـــا ... إِذَا أَنَـــا لَـــمْ أَنْسَـــها أُدْفَـــعُ[٥١]

فخفاف فى تلك الأبيات يقطع بأن تلك حرمات أربع لا يمكن تجاوزها وهى التى منعت أن يقع شرٌّ بينهما أو هجاء به ابتذال، هذه الحرمات هى العلائق وهى الروابط بينهما وما يجمعهما من شرف وعهد ونسب رفيع، وهذه الأبيات صادقة الدلالة على ما كان بينهما من نقائض.

تعقيبٌ وتحليلٌ:

نستطيع بعد ذلك الرصد والاستقراء لنقائض خفاف والعباس أن نقف على عدد من الملاحظات المهمة التى تؤصِّل لفن النقائض الشعرى:

- عدد نقائض خفاف والعباس عشر نقائض، وهو يتفق وعدد نقائض جرير والأخطل مع التسليم باختلاف نقائض العصر الجاهلى عن نقائض العصر الأموى، وذلك لعدد من العوامل الحضارية والفكرية والسياسية.
- تعادل الشاعران فى أيّهما صاحب المنقوضة أو الناقضة، فكان كلا الشاعرين بادئًا فى خمس نقائض ومجيبًا للآخر فى خمسٍ أخرى.

- التزم الشاعران بالأصول الفنية المحددة للنقائض؛ فوجدنا نقض المعانى ووحدة الموضوع والالتزام بالبحر العروضى والقافية والروى، وهى الأسس التى حددها النقاد كأساس لفن النقائض الشعرى.
- تنوعت طرق المناقضة فى هذه النقائض فوجدنا القلب والتوجيه والتكذيب والموازنة، وغلب عليها الفخر.
- المضامين الأساسية والمواد التى بنى منها الشاعران نقائضهما كانت الفخر والهجاء واستلهام الأيام، ولم يصل الهجاء فى هذه النقائض إلى حد الإسفاف أو الابتذال.
- التكرار ظاهرة لغوية بارزة فى النقائض بصفة عامة، وفى نقائض خفاف والعباس بصفة خاصة، وهذا التكرار يتمثل فى تكرار معنوى وتكرار لفظى.
- استخدم الشاعران خمسة بحور خليلية فى تلك النقائض جاءت على النحو التالى:

اسم البحر	عدد مرات الاستخدام
الوافر	٣
المتقارب	٣
البسيط	٢
الطويل	١
الكامل	١
الإجمالى	١٠

ونلاحظ أن العباس فى قصائده التى كان بادئًا فيها /المنقوضة/ اختار البحور الخليلية: الوافر (مرتين)، المتقارب (مرتين)، الكامل (مرة)، وكان مضطرًا فى صياغة قصائده الناقضة فى البحور الأخرى مما يوحى بأنه يفضل تلك البحور الخفيفة صافية التفعيلة والتى تصلح لغرض مثل الفخر والهجاء، وكى يسهل حفظ الشعر الذى يقوله مما يمهد لغلبته على صاحبه.

ونلاحظ أن خفافًا فى قصائده التى كان بادئًا فيها /المنقوضة/ اختار البحور الخليلية: البسيط (مرتين)، الوافر والطويل والمتقارب مرة واحدة، وكان مضطرًا إلى صياغة قصائده

الناقضة فى البحور الأخرى، مما يوحى أنه يفضل البحور الطويلة مختلفة التفعيلة التى تسمح له بالتعبير عما يريد من معانٍ نظرًا لطول حركاتها وسكناتها.

● استخدم الشاعران سبعة حروف جاءت رَويًّا لقصائدهما فى تلك النقائض وجاءت على النحو التالى:

الحرف	عدد مرات الاستخدام
د	٢
ر	٢
ع	٢
الألف	١
س	١
ف	١
الميم	١
الإجمالى	١٠

● تتفق نقائض خفاف والعباس مع نقائض العصر الأموى من الناحية الفنية حيث الالتزام بالأصول الفنية لفن النقائض، ولكنها تختلف عنها من حيث الباعث والهدف؛ فالباعث فى نقائض خفاف والعباس هو التنازع حول الزعامة، والهدف هو إثبات الأحقية والأفضلية لتلك الزعامة، أما فى نقائض العصر الأموى وخصوصًا النقائض الأشهر بين جرير والفرزدق؛ فكانت عملاً كما يقولد. شوقى ضيف «عملاً يراد به –قبل كل شىء– إلى تسلية الجماعة العربية الجديدة فى البصرة»[٥٢]، ويقول فى موضع آخر «والحق أن نقائض الشاعرين لم تكن إلا مناظرات أدبية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة»[٥٣].

وقد أشرت –قبلاً– إلى أن ذلك يعود إلى اختلاف العصرين الجاهلى والأموى اختلافًا جذريًا فى الحضارة والفكر والثقافة والسياسة، بل إننى أتفق تمامًا مع ما ذهب إليه د. فوزى أمين من أن نقائض جرير والفرزدق كانت تمثل لونًا من ألوان المسرح الباكر فى تاريخنا الفنى، وذلك لتوفر معظم عناصر المسرح فيها من مكان للعرض وجمهور يشجع وتوزيع

للأدوار وإخراج مسرحى[٥٤]، وعليه فنقائض جرير والفرزدق لم يكن بها ذلك الباعث الجاد والحقيقى الذى كان موجودًا فى نقائض خفاف والعباس إلى الحد الذى ترتب على هذه النقائض بينهما الاقتتال وإشعال الحرب بين أبناء القبيلة الواحدة.

● تمثل نقائض خفاف والعباس حلقة أساسية ومهمة من حلقات فن النقائض الشعرى، وهى نقائض تحتاج إلى عناية الباحثين والدارسين من خلال دراسة التشكيل اللغوى وجماليات الأداء الفنى وخصوصًا وأن خفافًا كان من الشعراء الذين يلجأ إليهم علماء اللغة للاحتجاج بشعره ومن هؤلاء ابن منظور، وابن دريد، وابن جنى والزمخشرى وغيرهم.

هوامش البحث:

(*) د. شوقى ضيف، التطور والتجديد فى الشعر الأموى، دار المعارف، مصر، ص ٣٢٩.

(١) ينظر فى نسبه: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ج١، ص ٣٢٩ ترجمة رقم ٤٢، أبو الفرج الأصبهانى، كتاب الأغانى، إشراف وتحقيق إبراهيم الإبيارى، دار الشعب للطباعة والنشر، ١٣٩٠هـ – ١٩٧٠م: ١٩/ ٦٨٢٧.

(٢) ديوان العباس بن مرداس السُّلَمي، جمعه وحققه د. يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ– ١٩٩١م، ص ١٠٦.

ويروى صدر البيت "أمَّا أنت ذا نَفَرٍ".

(٣) الأغانى: ١٩ / ٦٨٢٧.

(٤) السابق، والبغدادى، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه د. محمد نبيل طريفى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م، ج٥، ص ٤٢٥.

(٥) الخزانة: ٥ / ٤٢٦

(٦) د. عبده بدوى، الشعراء السود وخصائصهم فى الشعر العربى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، وزارة الثقافة والإعلام، مصر، ١٩٧٣م، ص ٤٠.

(٧) د. نورى حمودى القيسى، شعراء إسلاميون، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت– لبنان، ط٢، ١٤٠٥هـ– ١٩٨٤م، ص ٤٣٦.

(٨) د. يوسف خليف، الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى، ط٣، دار المعارف، ص ١١٢.

(٩) الأغانى: م ١٩ / ٦٨٢٩ – ٦٨٣١.

(١٠) شرح ديوان خفاف بن نَدْبة السُّلَمى، جمع وشرح وتحقيق د. محمد نبيل طريفي، دار الفكر العربى، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م، ص ٣٠، ٣١.

(١١) الأغانى: م١٩/ ٦٨٢٨.

(١٢) الأصمعى (أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك ١٢٢ – ٢١٦هـ) ، الأصمعيات، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون، دار المعارف، مصر، المقطعات [٢، ٣، ٤، ٥].

(١٣) د. عبد الله عبد الغنى سرحان، ديوان الخيل فى الجاهلية، جمع وتحقيق وشرح، راجع نصوصه د. إبراهيم راشد، ود. أحمد الغريب، مركز حمد الجاسر الثقافى، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ – ٢٠١٢م، ص ٢٩١ – ٣٠٠، ترجمة رقم ١٢٨.

(١٤) الأغانى: م ١٣، ص ٥١٧١، الشعر والشعراء، ج١، ص ٢٩١، ترجمة رقم ٢٩.

(١٥) ديوان العباس، ص ٩.

(١٦) الأغانى: م١٣/ ٥١٧١، الخزانة: ١ / ٧٣، وديوان العباس، ص ١٠.

[١٧] ديوان العباس، ص ١٠.

[١٨] الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب)، رسائل الجاحظ، الرسالة الرابعة "كتاب فخر السودان على البيضاوى"، المؤلفات الكاملة، دار نوبليس، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٥م، المجلد ٢٠، ص ١٣١، ١٣٢.

[١٩] د. عبد الله سرحان، ديوان الخيل فى الجاهلية، ص ٥٦٧ – ٥٧٤، ترجمة رقم ٢٥٧.

[٢٠] ديوان العباس، ص ١٢.

[٢١] الأغانى: م١٣/ ٥١٧٢، ٥١٧٣.

[٢٢] الأغانى: م١٣/ ٥١٧٥، ٥١٧٦.

[٢٣] ديوان العباس، ص ١٩، ٢٠، ٢١.

[٢٤] يرجح الزركلى فى الأعلام وفاته سنة ١٨ هـ عنه ديوان العباس بن مرداس، ص ٢٥.

[٢٥] د. على أحمد علام، شعراء فرسان تحت راية الإسلام، تاريخ وظواهر فنية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الطبعة الأولى ٢٠٠٧م، ص ١٤٦، ويبدو أن المؤلف قد اعتمد على ترجيح الزركلى فى الأعلام أن تكون وفاة العباس سنة ١٨هـ.

[٢٦] لسان العرب أو القاموس المحيط مادة (نقض)، وينظر أحمد الشايب، تاريخ النقائض فى الشعر العربى، مكتبة النهضة المصرية، ط٢، ١٩٥٤م، ص ٢ ، ٣.

[٢٧] أحمد الشايب، تاريخ النقائض، ص ٣.

[٢٨] المرجع السابق، ص ٤.

[٢٩] د. صلاح الدين الهادى، اتجاهات الشعر فى العصر الأموى، دار الثقافة العربية، القاهرة ١٩٨٢م، ص ٢٧٢.

[٣٠] المرجع السابق، ص ٢٧٢.

[٣١] الأغانى: م١٩ / ٦٨٣٩ – ٦٨٤١.

[٣٢] د. أحمد سيد محمد عمار، المستدرك على شعر خفاف بن ندبة السُّلّمى، مجلة التراث العربى، الشبكة الإلكترونية، ص ١٤٩، ١٥٠، وقد اعتمد فيه على رواية الأغانى.

[٣٣] الأغانى: ١٩/ ٦٨٤١ – ٦٨٤٣، والمستدرك على شعر خفاف، ص ١٥١ معتمدًا على الأغانى.

[٣٤] المصدر نفسه، ص ٦٨٤٣ – ٦٨٤٥.

[٣٥] د. إحسان النص، العصبية القبلية وأثرها فى الشعر الأموى، دار الفكر، الطبعة الثانية، ١٩٧٣م، ص ٤٢٧.

* وردت فى الأغانى "يا أيها" وعليه جاء فى شعره جمع د. نورى القيسى، وبهذا يكون فى البيت خرم، والصحيح ما أثبته وهوما جاء فى شعر خفاف جمع د. محمد نبيل طريفى.

[**] الخُزْم: جمع أخزم، وهو الذى خزم من الفحول القوية، يعنى أنهم يجودون بالفحول لا بالمهازيل، وفى شعره جمع القيسى "للجرم" وجمع د. طريفى "للحم".

[٣٦] الأغانى: ١٩/ ٦٨٤٦، ٦٨٤٧، وشعر خفاف جمع د. نبيل طريفى، ص ٩٤، ٩٥، وديوان العباس،ص ١٥٣، وهناك اختلاف فى رواية بعض الكلمات بما لا يؤثر فى المعنى.

[٣٧] الأغاني: ١٩/ ٦٨٤٧ – ٦٨٥١، وأبيات العباس فى ديوانه، ص ٥٢، ٥٣، وأبيات خفاف فى شعره جمع د. نبيل طريفى، ص ٣٩، ٤٠، مع وجود اختلاف رواية بعض الكلمات بما لا يؤثر فى المعنى.

[٣٨] الأغانى: ١٩/ ٦٨٥١ – ٦٨٥٣، وأبيات خفاف فى شعره جمع د. نبيل طريفى، ص ٥٢ – ٥٤، وأبيات العباس فى ديوانه، ص ٧٥، ٧٦، مع وجود اختلاف فى رواية بعض الكمات بما لا يؤثر فى المعنى.

[٣٩] أحمد الشايب، تاريخ النقائض فى الشعر العربى، ص ٢٨.

[٤٠] ديوان العباس، ص ٧٧، والأبيات الستة الأولى فى الأغانى: ١٩/ ٦٨٣٥، ٦٨٣٦.

[٤١] الأغانى: ١٩ / ٦٨٣٦، ٦٨٣٧، شعر خفاف، جمع د. نبيل طريفى، ص ٥٥، وقد ضم هذه الأبياتد. نورى القيسى إلى نقيضة خفاف السابقة، ص ٤٧٨.

[٤٢] ديوان العباس، ص ٣٥– ٣٧، والرواية "بتصرف" من الأغانى: ١٩/ ٦٨٣٢ – ٦٨٣٥، والرواية باختلاف بسيط فى الشعر والشعراء، ج٢، ص ٧٣٤ – ٧٣٦.

[٤٣] الأغانى: ١٩ / ٦٨٣٨، ٦٨٣٩، شعر خفاف، جمع د. نبيل طريفى، ص ٣٢، ٣٣.

[٤٤] شعر خفاف، جمع د. نبيل طريفى، ص ٦٦، ٦٧، والبيت الثالث تروى "الفواقر" بدلاً من "القوافى" وقد أثبت ما يتسق ومعنى البيت.

[٤٥] المرجع السابق، ص ٦٧.

[٤٦] ديوان العباس، ص ١١٧ – ١١٨.

[٤٧] الأغانى: ١٩ / ٦٨٣٥.

[٤٨] شعر خفاف، جمع د. نبيل طريفى، ص ٦٤.

[٤٩] ديوان العباس، ص ١٠٣.

[٥٠] أحمد الشايب، تاريخ النقائض، ص ١١٥.

[٥١] شعر خفاف، جمع د. نبيل طريفى، ص ٦٤، ٦٥.

[٥٢] د. شوقى ضيف، التطور والتجديد فى الشعر الأموى، دار المعارف، مصر، الطبعة السابعة، ص ١٨٢.

[٥٣] المرجع السابق، ص ١٨٤.

[٥٤] د. فوزى محمد أمين، فى شعر صدر الإسلام والعصر الأموى، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٦، ص ١٣٦.

المصادر والمراجع

١- إحسان النص (الدكتور):

العصبية القبلية وأثرها فى الشعر الأموى دار الفكر، الطبعة الثانية، ١٩٧٣م.

٢- أحمد سيد محمد عمار (الدكتور):

المستدرك على شعر خفاف بن ندبة السُّلّمى، مجلة التراث العربى، الشبكة الإلكترونية.

٣- أحمد الشايب (الأستاذ):

تاريخ النقائض فى الشعر العربى، مكتبة النهضة المصرية، ط٢، ١٩٥٤م.

٤- الأصمعى: (أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك١٢٢-٢١٦هـ):

الأصمعيات، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون، دار المعارف، مصر.

٥- البغدادى: (عبد القادر بن عمر البغدادى):

خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه د. محمد نبيل طريفى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

٦- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب):

رسائل الجاحظ، الرسالة الرابعة "كتاب فخر السودان على البيضاوى"، المؤلفات الكاملة، دار نوبليس، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٥م.

٧- شوقى ضيف (الدكتور):

التطور والتجديد فى الشعر الأموى، دار المعارف، مصر، الطبعة السابعة.

٨- صلاح الدين الهادى (الدكتور):

اتجاهات فى الشعر فى العصر الأموى، دار الثقافة العربية، القاهرة ١٩٨٢م.

٩- عبد الله سرحان (الدكتور):

ديوان الخيل فى الجاهلية، جمع وتحقيق وشرح، راجع نصوصه د. إبراهيم راشد، ود. أحمد الغريب، مركز حمد الجاسر الثقافى، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

١٠- عبده بدوى (الدكتور):

الشعراء السود وخصائصهم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، وزارة الثقافة والإعلام، مصر، ١٩٧٣م.

١١- على أحمد علام (الدكتور):

شعراء فرسان تحت راية الإسلام، تاريخ وظواهر فنية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الطبعة الأولى ٢٠٠٧م.

١٢- أبو الفرج الأصبهانى:

كتاب الأغانى، إشراف وتحقيق إبراهيم الإبيارى، دار الشعب للطباعة والنشر، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.

١٣- فوزى محمد أمين (الدكتور):

فى شعر صدر الإسلام والعصر الأموى، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٦.

١٤- ابن قتيبة (أبو محمد الدينورى):

الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة.

١٥- محمد نبيل طريفى (الدكتور):

شرح ديوان خفاف بن ندبة السلمى، دار الفكر العربى، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.

١٦- نورى حمودى القيسى (الدكتور):

شعراء إسلاميون، شعر خفاف، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت- لبنان، ط٢، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٤م.

١٧- يحيى الجبورى (الدكتور):

ديوان العباس بن مرداس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ- ١٩٩١م.

١٨- يوسف خليف (الدكتور):

الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى، ط٣، دار المعارف.